مشاهدات القاهرة في رحلة أنسيلم أدورنو(البلجيكي) عام ١٤٧٠م.

د. السيد صلاح محمد الهادي محمود

مدرس التاريخ الوسيط- كلية الآداب -جامعة الزقازيق

الملخص:

تتناول هذه الدراسة واحدة من أهم مدونات الرحالة الأوربيين وهي للرحالة البلجيكي أدورنو، والذي جاء إلى الشرق العربي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادى، مقدمًا لنا وصفا رائعا ودقيقا لأحوال الشرق الإسلامى (فلسطين ومصر وتونس) لكننا في هذه الدراسة سنركز على وصف الرحالة البلجيكي لأوضاع القاهرة بشكل خاص .

وقد قدم لنا هذا الرحالة معلومات جديدة لم يتطرق لها أي رحالة أوروبيين، كما أن هذه الرحلة قد وقعت في طى النسيان لدى كثير من الباحثين وقد تناولتُ في هذه الدراسة من هم مدونو هذه الرحلة، ثم انتقلت للحديث عن وصف العمران في القاهرة، ثم دلفت للحديث عن الأهرامات ونبات البلسم ، ثم انتقلت للحديث عن السلطان المملوكى وسلطاته وأمرائه المماليك، ثم عرجت للحديث عن ضيافة المماليك للزوار البلجيك، ثم خاتمة بأهم نتائج الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الزوار، الأوروبيون، مصر، القاهرة، نبات البلسم.

Abstract:

This Study deals with one of the most important records of European Travellers, Whiche is for the Belgian Traveller Adoms ,who came to the Arab East in the second half of the fiftheenth Century AD,providing us with awonderful and an accurate description of the conditions of the Arab East(Palestine, Egypt, Tunisia) but in this Study we will Focus on the Belgian Travellers description of the conditions of cairo in ascientific manner .

this travellers provided us with new information that no European Traveller had touched on, and this trip had fallen into oblivion among many researchers . I ve handley the registers of this trip in my study ,then I moved on to speak about the urbanization in cairo ,then the pyramids and Balsam plants .I moved on to talk about the Mamluk sultan ,his authorities and his Mamluk Wives ,then I stopped to talk about the hospitality of the Mamluks to the Belgian visitors and aconclusion with the most important results of the study.

Keywords :Visitors, European, , Egypt, Cairo, Balsam plants.

المقدمة:

جذبت القاهرة أعين الرحالة الأوروبيين بوصفها عالمًا غريبًا عن أعينهم ووجدت رغبةً قوية على زيارتها، وتعددت الدوافع التي دفعت الأوروبيين إلى القدوم إلى الشرق الإسلامى، فهناك مثلا الدافع العسكري؛ بغرض كتابة تقارير عسكرية عن المسلمين ومراقبة الموانئ وتقديم تقارير تجسسية عن المنطقة العربية بشكل عام ومصر بشكل خاص، أضف إلى ذلك الدافع الاقتصادي فقد قدم عدد كبيرًا للشرق العربي منهم للوقوف على احتياجات الشرق والغرب سواء كان واردًا أو صادرًا، كذلك وفد عدد منهم زوارًا للأماكن المسيحية المقدسة في سيناء، والفسطاط ،والمطرية، والصعيد، وغيرها من بقاع مصر. ولعل الرحلة التي بين أيدينا كان مقصدها زيارة الأماكن المقدسة في مصر المرتبطة بسيرة السيد المسيح ورحلة العائلة المقدسة، وزيارة منطقة المطرية لرؤية نبات البلسم، وهو ما أكده أنسيلم أدورنو Anselm Adorno بقوله:" إن ما دفعهم نحو بلاد الشرق إنما هو الحج لمشاهدة الأماكن المقدسة والصلاة في الأماكن التي قدسها المسيح"[(١)]، ومن أجل ذلك جاء كثير من الرحالة الأوروبيين لزيارة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، وكانوا من مختلف الجنسيات سواء كانوا إيطاليين وإنجليز وبلجيك وغيرهم، ومن هؤلاء كان الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو والذى زار فلسطين ومصر وتونس خلال الفترة من ١٤٧٠-١٤٧١م.

* **التعريف بالرحلة وكاتبها:**

وجدير بالذكر أن رحلة أنسيلم أدورنو تضعك في حيرة من أمرك إذ لا تدرى إن كانت قد تّم تدوينها بقلم واحدٍ، بقلم الأب أو الابن أم بقلميهما؟ ولا تدرى مدى مساهمة كُلًّ منهما، فليس هناك أي شك في ما كتبه" جان" John الابن، حيث يذكر أنه كان يسجل انطباعاته في أثناء الرحلة في أوراق خاصة به، والتي نفدت عند وصوله إلى جبل سيناء، وصحب في طريق العودة الحجاج حتي بروج Bruges، حيث مكث ستة أشهر، وهو الوقت الذي استغرقته كتابة هذه الرحلة.على أَنَّ أنسيلم هو الذي تزعم الرحلة بأسرها، فهو الذى خطط لها ونظمها ابتدءً من بروج ، حيث التقى بابنه جان بعد غياب دام لمدة خمس سنوات، وهو الذي اتخذ أهم القرارات، كما أنه هو الذي قَدَّم نفسه في كل المناسبات سواء في القاهرة أو تونس، كما أنه نَظَّم شروط الرحلة ومراحلها ومدة كُلًّ منها، فكيف لنا أن نخمن أنه مع حضوره أعطى كل الحرية لابنه في تسجيل ذكرياته ولم يمل هو عليه ولو رأيه؟ كما أنه من رجال البلاط البلجيكي الذى توقع أنه بهذا الكتاب سينال من رؤسائه المزيد من الحظوة والترقية، كل هذا يفرضُ علينا بعض التريث؛ لأن

(1) Adorno, A., Itineraire d'Anselm Adorno en Terre Sainte(1470-1471),Texte Edite, Traduit et annote par, Jacques Heers et Georgette de Groer, Paris,1978, P.12.

هذه الرحلة تعّبر بلا شك عن شخصيتين وثقافتين ربما مختلفتين[١]. لذلك سنذكر اسم الرحالة أنسيلم أدورنو على طول البحث؛لأن مسمى الرحلة باسم الأب، كما أن شخصية الأب هى من طغت على الأحداث. ويجدر بنا التعريف بكلٍّ من الكاتبين.

ولد **أنسيلم أدورنو** في مدينة بروج Bruges ببلجيكا عام ١٤٢٤م، وينتمى إلى أسرة أرستقراطية، وكان أبوه بطرس الثانى Biter II، وأمه اليزابيث برادربلكس Elizabeth Braderlekx، وزوجته مارجريت فان ديربنك Margriet van Derbank ،التى أنجبت له ستة عشر طفلاً، وينحدر أصل أجداده من مدينة جنوة الإيطالية، لكن مع منتصف القرن الثالث عشر الميلادى انتقلت عائلته إلى الفلاندرز واشتغلت بالتجارة، وتقلدت عائلته مناصب مهمة فى مدينة بروج[٢].

وقد تولى أنسيلم العديد من المناصب السياسية المهمة في مجلس ولاية براغ Bragh، واشتغل بالتجارة الخارجية مع مدينة جنوة وأسبانيا، واعتمدت تجارته على الواردات من حجر الشبّ[٣] والأقمشة من تورينو Trourniai، وانجلترا وتمتع انسيلم فى الفلاندر وإيطاليا واسكتلندا، حيث أقام معهم عقودًا تجارية[٤]، **أمّا ابنه جان،** فقد ولد هو أيضًا في مدينة بروج عام ١٤٤٤م، فهو الابن البكر لأنسيلم أدورنو من اثنى عشر ولدا، وأكمل دراسته في مدينة بافيا Pavia الإيطالية حتى عام ١٤٧٠م، وتولى عدة بعثات دبلوماسية في خدمة الكاردينال Hugonet في روما، وبعد عودته من رحلة الحج إلى الشرق الإسلامي عام ١٤٧٠-١٤٧١م، أصبح راهبًا في دير القديس بيير Saint Pierre في مدينة ليل Lille بفرنسا إلى أن توفي عام ١٥١١م[٥].

فنحن إذن أمام رجلين من أصحاب المهن والخبرات المختلفة كل منهما يعتبر نفسه منتميًا إلى السلك الدبلوماسى، وعاشا طيلة حياتهما في ظل الوجهاء والأمراء، ومن هنا كان اهتمام كل منهما دائما وفي كل مكان بالحياة السياسية السائدة في البلاد التي يعبرانها ويزورانها وبالتقرب من سلطانها، وانشغالهما الدائم بالسياسة، أضف إلى ذلك أسلوبهما في سرد أحوال رحلتهما لمسةً

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 7.

(2) Adorno, A., Itineraire d'Anselm, P.7.

(٣) حجر الشب: هي مادة بلورية عديمة اللون تستخرج من صخور معينة على قمم الجبال، وعملية إنتاجه كانت طويلة ، تتطلب عدة مراحل من الغليان والنقع والتجفيف، وكان منه نوعان ، الشب الصخري، والشب المحبب. هناك دراسة مهمة للباحث محمد دسوقي محمد حسن تحت عنوان: "احتكار أسرة زكاريا الجنوية لتجارة الشب في فوكايا وتداعياته (١٢٧٥- ١٣١٤م)"، مجلة الدراسات الانسانية والأدبية ، كلية الآداب ، جامعة كفر الشيخ، العدد ٢٦، مايو ٢٠٢٢م، ص١٨٨-٢٤١.

(4) Dopp, Le Caire Vu Par Les Voyageuŕs occidenaux Age in Bulletin De la societe De La societe De Geographie D'Egypte, Tome 26, P. 107-108.

نسمة حامد، الاسكندرية فى عصر المماليك الجراكسة فى كتابات الرحالة الأوروبيين ١٣٨٢- ١٥١٧م / ٧٨٤- ٩٢٣هـ ، دراسة تحليلية نقدية مقارنة، نور حوران، سوريا، ٢٠٢١م ، ص ٣٤-٣٥.

(5) Adorno, A., Itineraire d'Anselm, P.9.

مشوقةً ميزت هذه الرحلة بالنسبة لسلطنة المماليك في القاهرة وطبقات الخدم المختلفة وطريقة الانتخاب والخلافة كل ذلك موصوف بدقة.

وقد امتدت رحلة آل أدورنو قرابة عامٍ كاملٍ، بدأت فى يوم ١٩ فبراير ١٤٧٠م من مدينة بروج، إلى أن وصلوا إلى جنوة يوم ٧ مايو، ومنها اتجهوا إلى تونس التي وصلوها في ٢٤ مايو، وواصلوا سيرهم إلى أن وصلوا القاهرة يوم ٧ أغسطس، ومنها إلى جبل سيناء في ٢٤ أغسطس[١].

وفي الواقع يعد البلجيكى أنسيلم أدورنو من أبرز الرحالة الأوربيين المسيحيين الذين زاروا مصر في أواخر العصور الوسطى، وامتدت رحلته في الشرق (مصر وفلسطين وتونس) في الفترة من ١٤٧٠– ١٤٧١م، وقد وقع الاختيار على رحلة أنسيلم أدورنو لانفراده بالاهتمام بتقديم تحليلات دقيقة عن مدينة القاهرة، تميزاً عن بقية الرحالة الأوربيين الذين عاصروه أو جاءوا بعده، كما أن هذا الرحالة وقع في طي النسيان[٢]، فمعظم الدراسات العربية تتحدث عن رحالة جاءوا بعده دون الرجوع له، على الرغم من أن عددًا كبيرًا من هؤلاء الرحالة اللاحقين قد نقلوا عنه أخبارًا ووصفًا لعدد من الأماكن في الشرق، بيد أن كتاباته بصفة عامة مقتضبه، ومع ذلك فقد احتوت على كثير من المعلومات التاريخية والحضارية المهمة، ولعل دراسة هذه الرحلة فيما يختص "بمشاهداته لمدينة القاهرة في أواخر العصور الوسطى" مع مقارنتها برحلات أوروبية أخرى سابقة

---

(١) واستكمل انسيلم أدورنو ومن معه سيرهم إلى أن وصلوا القدس فى ١١ سبتمبر ومنها إلى دمشق فى ١٦ أكتوبر، ومنها إلى بيروت فى ٢٨ أكتوبر، ثم العودة مرة أخرى إلى أن وصلوا بريينديزى فى ٢٤ نوفمبر، ثم العودة إلى روما عبر نابولى، ومكثوا في المدينة من ١١ يناير إلى ٢٩ يناير ١٤٧١م، ومنها للبندقية من ١٨ فبراير إلى ٧ مارس، وفى كولونيا ٢٨ مارس، إلى أن وصلوا أخيراً إلى بروج يوم ٤ أبريل، وبذلك تكون رحلتهم قد استمرت قرابة عام ويزيد.

Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 1.

(٢) هناك دراسة مهمة للباحث السعودي عبدالعزيز عبدالله محمد أبو داهش بعنوان : الرحلة عبر مصر في يوميات الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو(١٤٧٠م) والألماني أرنولد فون هارف(١٤٩٧م)، وتتناول هذه الدراسة المصاعب والمشاق التي يتعرض لها الرحالة منذ الخروج من بلادهم الأصلية حتى وصولهم للشرق الإسلامي، وكذلك تعاملهم مع موظفي الجمارك، والتعامل مع التراجمة الخصوصيين، والتعامل مع أرباب النقل النهري، دون أن تتطرق هذه الدراسة من قريب أو بعيد عن وضع مدينة القاهرة في تلك الفترة وهو ما سنذكره في بحثنا. للمزيد عن هذه الدراسة انظر: عبدالعزيز عبدالله محمد أبو داهش بعنوان : الرحلة عبر مصر في يوميات الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو(١٤٧٠م) والألماني أرنولد فون هارف(١٤٩٧م) دراسة مقارنة في ضوء الرحلات الأوروبية خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكى، مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية، المجلد ٧، العدد٢، ٢٠٢٠م، ص١١٣–١٥٠.

.

لها مثل: رحلة فريسكو بالدى Frescobaldi عام١٣٨٤م، ونيكولاس دى مارتوني Nicolas de Martoni عام ١٣٨٤م، بارون انجلور Baron, P. Anglure عام ١٣٩٥م، ايمانويل بيلوتى Emmanuel Piloti عام ١٣٩٨م، وكذلك رحلات لاحقه عليها ممثلة في رحلة ميشولام بن مناحم Meshulham Ben R., Menahem of volterra عام ١٤٨١م، وجوس فان غستال Joos Van Ghistele عام ١٤٨٢م، وفليكس فابرى Felix fabri عام ١٤٨٣م، وبرنارد بريدينباخ Bernard de Breydenbah عام ١٤٨٣م، وفون هارف Arnold von Harff عام ١٤٩٧م، وسوريانو Suriano عام ١٥٠٣م، وغيرهم من الرحالة مما يعطى الدراسة مزيدًا من الأهمية والزخم وتفضى إلى تصورٍ واضحٍ لمدينة القاهرة في أُخريات العصور الوسطى، خاصة وأن المصادر العربية أعطت بعدًا وعمقًا إضافيين فى الإلمام بجوانب البحث.

*** بداية أحداث الرحلة:**

بدأ أنسيلم أدرونو الحديث عن رحلته للقاهرة انطلاقًا من مدينة الإسكندرية التي وصلها في الثانى من أغسطس عام ١٤٧٠م، في صحبة أحد المماليك والترجمان وأربعة حراس من المماليك على خيولهم مسلحين بالأقواس والسهام لضمان أمن أنسيلم ومن معه من احتمال اعتداءات العربان(١) وقد وصلوا إلى مدينة رشيد التى وصفها بأنها مدينة صغيرة موجودة على النيل، منازلها مبنية من حجارة مربعة، ولم يتأخر أنسيلم ورفاقه كثيرًا إذ ركبو أحد المراكب وانطلقوا في نهر النيل الذى نال إعجابه قائلاً :"بأنه "نهر جميل بديع شطآنه رائعة وبالغة الخصوبة والخضرة، ويترعرع عليها نبات الأرز الذي أكله بقشرة وقصب السكر المتوفر بكثرة والشمام، ومن البطيخ أروع ما يكون الذى يشبه عصيره الماء السكر(٢)".

*** كيف استقبل الزوار البلجيك:**

وبمجرد أن وصل أنسيلم أدورنو ومن معه إلى القاهرة في يوم السابع من أغسطس، حتى استأجروا حميراً ليركبوها، وتوجهوا بها إلى منزل ترجمان السلطان(٣)، لكن وهم في الطريق

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 175.

(2) Adorno, Itineraire d' Anselme , P. 175.

(٣) كما أن هناك رحالة آخرون أقاموا فى منزل الترجمان مثل: أرنولد فون هارف عام ١٤٩٧م، الذى أقام في منزل الترجمان تغرى بردى.

Arnold von Harff, the Pilgrimage of Arnotd von Harff. Knight, from cologne, through Italy, Syria, Egypt, Arabia, Ethiopia, Nubia, Palestine, turkey, france and spain, which he Accomplished in the years 1496 to 1499, Trans from the German and edited with notes and an introduction by malcelm lettes, F. S. A., London. 1946, p. 41.

استقبلهم بترحاب ثلاثة من المصريين ممتطين حميرهم، وهؤلاء الثلاثة مكلفين من قبل السلطان لحمايتهم من أى خطر أو استغلال، لكن أنسيلم يشكك في نواياهم قائلاً: إن السلطان بلغهم أمره بمرافقة جميع الفرنج أو اللاتين القادمين إلى المدينة، تجنبًا لأستغلالهم، لكن كذب أولئك الملاعين، ولم يقصدوا إلا ابتزاز أموالنا"[١].ونفهم من ذلك أن هؤلاء المصريين الثلاثة قد أخذوا منهم أموالًا .

وما إن وصل أنسيلم أدورنو ومن معه إلى منزل ترجمان السلطان حتى لقى حفاوة واستقبالًا عظيمًا، ثم قدم بعد ذلك ثلاثة تراجمة آخرون من قبل السلطان، فذكر أنسيلم أدورنو أسماءهم الأول "زام بيك"[٢] والذى كان على معرفة جيدة بأهل أسرة أنسيلم أدورنو والتى قدمت له بعض الخدمات في جنوة، لذلك عامله "زام بيك" بمودة وصداقة، وقدم له الدعوة لتناول الغذاء عنده، وقدم له وصفًا لمدينة القاهرة، ولم يكتف بذلك بل طلب من المترجم الثانى "كام بيك"[٣] أن يعامل أنسيلم ومن معه باعتبارهم أصدقاء وليس كغرباء، ولم يتركهم "زام بيك" فقد استقبلهم فى منزله مدة ثمانية أيام[٤] لكن أنسيلم أدورنو يؤكد بأن فترة هذه الضيافة كانت على حسابهم الخاص، وكرر حديثه أنه لم يكن يثق فيهم قائلاً: "قضينا عنده ثمانية أيام في ظروف تشرفنا، لكن على حسابنا، الذى كان باهظًا، فإن مضيفناً هذا استطاع غشنا، هؤلاء الناس، أسخياء قولاً لكنى لا أثق بهم"[٥].

وبعد أن قضى أنسيلم أدورنو ورفاقه ثمانية أيام في ضيافة "زام بيك" أخذهم لمقابلة ناظر الخاص[٦] الذى سألهم من أين أتيتم وإلى أين ذاهبون[٧]، ثم أعطى أوامره بالانصراف فتجول أنسيلم أدورنو ورفاقه في شوارع القاهرة مرتدين ملابس المسيحيين[٨] من ذوي الحزام[١].

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 209.

(٢) لعل أنسيلم أدورنو يقصد بكلمة "زام بك" اسم جانبك وهو اسم مملوكي ومعناه أمير الروح. للمزيد انظر: عبدالله عطية، معجم أسماء سلاطين وأمراء المماليك في مصر والشام، دار النيل، القاهرة، د.ت، ص٨٥.

(٣) ويقصد هنا بـ" كام بك" اسم قانباك وهو اسم مملوكي ومعناه الدم النقي. عبدالله عطية، معجم أسماء وسلاطين وأمراء المماليك، ص١٠٣.

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 205.

(5) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 205.

(٦) ناظر الخاص:وظيفة أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل الوزارة، ينظر من يتولاها أموال السلطان، وكان ناظر الخاص وقت قدوم الرحالة أدورنو هو تاج الدين بن المقسي . للمزيد انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٥٣؛ محمد قنديل البقلى، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٣٤٣.

(7) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 209.

(8) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 211.

بعد ذلك تحدث أنسيلم أدورنو عن مدينة القاهرة، موضحًا الفرق بين بابل والقاهرة قائلاً: "إن بابل هى أقدم من القاهرة والدليل أن أبوابها القديمة عليها رسوم محفورة ومغرقة القدم" وبابل أصغر من القاهرة بكثير والمسافة بينهم على حد وصفه: "لا تساوى طلقتى سهم، فالمدينتان ملتصقتان إن صح التعبير، وتعدان مدينة واحدة"[٢]، ومن الملاحظ أن ما سجله أنسيلم أدورنو في رحلته اتفق مع ما دونه الرحالة بريدنباخ والذي ميز بين القاهرة التي غادرها وبين بابل التي دخلها، والتي لا تبعد عن القاهرة مسافة حتي كادتا أن تكون مدينة واحدة"[٣] .

وأطلق عدد من الرحالة على **القاهرة** تسميات مختلفة، فقد ذكر أرنولد فون هارف ثلاث تسميات للقاهرة هى بابليون Babyloin وثايير Thaiyr يقصد بها القاهرة، ومصر maschera [٤]، إلا أن فابرى زاد على ذلك كله إذ ذكر تسعة وعشرين اسمًا للقاهرة[٥].

ثم انتقل بعد ذلك أنسيلم أدورنو إلى وصف **مدينة القاهرة** فقال إنها: تعتبر بحق كبرى المدن وأكثرها سكانًا، فإنها ضخمة، حتى لم نستطع أن نقدر بالأرقام مساحتها ولا عدد سكانها"[٦].ولما أثارت المدينة إعجاب أنسيلم أدورنو سأل التراجمة عن مساحتها وعدد سكانها فرد عليه أحد المترجمين بهذه العبارة: "لقد أمضيت أربعة وعشرين عامًا ونيفًا في مدينة القاهرة في خدمة السلطان ومع ذلك فعندما أعبر هذا الجانب من المدينة أو ذاك وأريد أن أعود إلى منزلى، علىّ أن استفسر عن الطريق[٧] .أما بخصوص عدد سكانها أجابه المترجم "في الصيف الماضى أثناء تفشى الطاعون في المدينة، مات كل يوم من عشرين إلى اثنين وعشرين شخصاً، ومع ذلك فالقاهرة مازالت عامرة بالسكان"[٨].وإن دل ذلك على شيئ فإنما يدل على أن الترجمان لم تكن له

(١) أبناء هذه الطائفة ينسبون إلى" ملكان " الذي ظهر ببلاد الروم، ويحسب للرحالة البلجيكي حديثه عن مسيحيي الحزام الملكيين، ولهم في القاهرة كنائس القديسة بربارة والقديس توما. للمزيد انظر:قاسم عبده قاسم،أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتي نهاية المماليك، دار عين للدراسات الانسانية، القاهرة،٢٠٠٣م، ص٩٧.

(٢) ويستكمل أنسيلم أدورنو حديثه بأن بابل مصر ليس بابل القديمة الواقعة على نهر الفرات، التى شيدها أبناء نوح، وأن بابل القديمة دمرت وحولت إلى خرائب وأقيمت محلها مدينة جديدة وهى بغداد، وبابل فرعون الجديدة "مصر" وتحاكى بابل القديمة من حيث عدواتها لنا الفرنسيين.

Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 183.

(3) Breydenbah,B., les saintes Péré grainations de Bernard de Breyden baeh 1483, text et tradaction annotée par le Péré f. Larrivaz S.J. Extraits relatifs á l' Egypte suivant, L' edition de 1490, Le caire, 1904, P. 53.

(4) Harff, the Pilgrimage p. 102.

(5) Felix fabri, levoyage en Egypte de felix fabri, 1483, traduit de latin e.t. de L' Allemand, Par le R.Jacques masson S., J., Publication de L'instut francais d' Archéologie Orientale du caire, 1975, 11, pp. 525, 748.

(6)Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 185.

(7)Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 185.

(8)Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 185.

دراية بعدد سكان القاهرة وهذا طبيعى، وبالرجوع للمصادر المعاصرة، تبين صدق المترجم بحدوث طاعون ضرب القاهرة في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٩م[١].

ثم علق على ذلك أنسيلم أدورنو بقوله: "فالقاهرة ما زالت عامرة بالسكان إلى حَدّ أنَّنَا لا نكاد نقدر عددهم فهم من الكثرة حيث لا تكفى المنازل لإسكانهم، رغم اتساع رقعتها المذهلـة، وفي كـل ليلـة كان عدد النيام في الشوارع وأمام أبواب المنازل يفوق عدد سكان أكبر مدن البلاد المسيحية"[٢].ونظرًا لاتساع القاهرة لم يستطع أنسيلم أدورنو عبورها طيلة الفترة من قبل الفجر بساعتين وحتى الظهر، رغم أنه كان يمشى تارة وأخرى يهرول[٣].وهنا، ولأن الرحلة كانت في الصيف فالسكان كانوا ينامون في الشوارع أمام منازلهم، وهذا في نظر الباحث مايقصده أنسيلم أدورنو.

كما قدم الرحالة أنسيلم أدورنو وصفاً تَفْصِيليًّا لمنازل القاهرة، لأنه تسنى له رؤية منازلها التى وصفها بأنها بُنيت على شاطىء النيل، وشكلها أقرب إلى قصور منها إلى منازل، ففي المدينة مبانى فخمة على شاكلة البنايات الشرقية، وعندما تدخل هذه المنازل تجد جدران الرخام مبلطة بالفيسفساء، ومبنية بطريقة رائعة، ويتم تقسيم المنزل كالآتى الطابق الأرضى يتكون من القاعات والغرف وليس بها نوافذ جانبية بل يوجد بها فتحه في السقف يتسرب منها الهواء الرطب والنور، وفي وسط الغرف طست مربع من الرخام عن كل من جانبيه كرسى يتيح للجالسين عليه أن يغتسل بعد ملئه بالماء البارد أو الساخن، بينما الطابق الثاني فلا نوافذ فيها فهى واسعة وطويلة يتاح أمامها المشى أو الوقوف أو الجلوس فهى مصنوعة من الخشب، وفي هذه الغرف ينام الناس لينعموا ببرودة الهواء، بينما منازلُ عْليَةِ القوم والأغنياء لها أبراج عالية من الخشب تعلوها منصة، حيث يتم مساءً وصباحًا الصعود لها للتمتع بالهواء البارد بعد الحر والقيظ وهذه الأبراج ليست مربعة ولا مستديرة بل على شكل نصف دائرة مبنية من الخشب ويتم الصعود عليها من خلال سلم[٤].

---

[١] عبدالباسط بن خليل(زين الدين بن شاهين الظاهري، ت٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٦،ص٣٦٣؛ ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٢٨هـ/١٤٦٨م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، ٢٠٠٨م،ج٣،ص٢٨.

Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 183.

[2]Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 185.

[3]Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 185.

[4]Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 185- 187.

وبعينيه الثاقبتين وقوة ملاحظته استكمل أنسيلم أدورنو وصفه للمدينة قائلاً: "ليس لها أبواب ولا أسوار، بل لكل شارعٍ أو لكل ميدانٍ أبوابهما الخاصة، منها اثنان في وسط المدينة بجوار أكبر مسجد، وهى بالغة الجمال تشبه باريس، ويشاهد فيها على الدوام مارة وحركة الناس ذهابًا وايابًا وبكثرة، ولا يمكن العبور فيما بينهم من غير تدافع[١].

وعلى عكس وصف أنسيلم أدورنو قدم لنا مارتين بومجارتن وصفاً آخر قائلًا : "إن شوارع القاهرة ضيقة جدًّا ومغطاة في جزئها الأكبر بأغصان الأشجار والبوص وغالبية منازلها مبنية بالطوب الممزوج بالقش المجفف بحرارة الشمس، والكثير منها مبنى ومغطى بالغاب والبوص، وأنها لا تقارن بمنازلهم[٢]. غير أنه وصف منازل الأغنياء بالجميلة والرائعة[٣]، وأضاف الرحالة اليهودى ميشولام إلى ذلك أن منازلها تحتوى على فسيفساء رائعة وبأن معظم سكان المدينة يعيشون في منازل ذات طابق أرضى فقط[٤]. ويتبين لنا أنه أمام هذه المشاهدات المختلفة لوصف القاهرة لا نجد بداً من أن ثلاثتهم(الرحالة) كانوا صادقين في وصفهم باعتبار أن كلاً منهم قد أهتم بوصف الجانب الذي رآه من المدينة، والذي لفت نظره، ولكى نعتمد تصورًا حقيقيًا للقاهرة فإننا نعرض لوصف المقريزي ابن مصر حينما ذكر أن أهل مصر بوجه عام اهتموا اهتمامًا بالغًا بتشييد المنازل وتأثيثها وتذويدها بكل وسائل الراحة، وقد بدت منازلهم في مظهرها الخارجي صغيرة وبسيطة، ولكنها في الداخل مرتبة غاية الترتيب ومقسمة إلى حجرات مختلفة ومزينة على خير صورة، وحرص الناس في هندسة بيوتهم على عدم تمكين أي فرد بالخارج أن يرى شيئًا مما بداخل المنزل[٥].

هذا وقد حظيت المساجد بإعجاب أنسيلم أدورنو؛ نظرًا لبراعة زخرفتها، فقال "إنها مبنية من رخام مصقول، كثيرة الزخرفة مصحوبة بمئذنة عالية، تعلوها أشكال الهلال التى يجعل ملوك المسلمين في أكثر الأحيان شعاراً لهم. وتعداد المساجد في القاهرة بأكثر من ألف مسجد"[٦]. ولكن عددًا من الرحالة الأوربيين ذكروا أعدادًا مختلفة فيقول جوس فان غستال، بأن المدينة بها

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 187.

(2) Martin Baumgartin, The Travels of martin Baumgartin a Nable of Germany through Egypt. Arabia, Palestine and Syria, Trans, Joseph Scaligar, 4 Vol. London, 1704, Vol. I, P. 443.

(3) Martin Baumgarten, The travels, P. 443.

(4) Adler,E.N.,Jewish Travelers, Ed., London,1930.
اعتمد الباحث على الترجمة العربية للكتاب تحت عنوان : أنكن ناثان أدلر، الرحالة اليهود رحلة الرابى ميشولام بن مناحم الفولتيري ١٤٨١م، في مصر وفلسطين، ترجمة مصطفي وجيه مصطفي، نور حوران، سوريا ، ٢٠١٩م، ص ٢١٨.

(٥): المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق إيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠١٣م،المجلدالثاني، ص ٢٢٥.

(6) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 187.

عشرة آلاف مسجد[١]، بينما حددها الرحالة فليكس فابرى بأربعين ألف مسجد[٢] إلا أن سوريانو حددها بستة عشر ألف مسجد[٣].

ويتضح مما سبق مدى التضارب في الآراء عندما ذكر عدد المساجد في القاهرة بين رحالة وآخر، والتى لا يمكن إحصاءها على حد قول برنارد دي بريدنبخ، الذى قال: "إن القاهرة تحوى أجمل المساجد بمآذنها الشاهقة، ولا أعتقد أن في روما عدداً من الكنائس مساوياً لعدد مساجد القاهرة التي تتسم بالفخامة[٤].ونخلص من ذلك بأن أعداد المساجد كانت كثيرة، ربما تفوق متطلبات سكانها المسلمين، رمزًا للتعبد والتقرب لله من شعب مصر المتدين.

أما بشأن كنائس القاهرة، فقد أشار أنسيلم أدورنو إلى وجود عدد من الكنائس: قائلاً: "وهناك أيضاً كنائس مسيحية كثيرة، لاسيما في بابليون، حيث أنها جميلة وفخمة مثل كنيسة القديسة باربارة Barbe وهى كنيسة جميلة وبالغة الزخرفة وفيها رفات القديسة، ويختتم أنسيلم أدورنو حديثه مختصرًا عند ذكر الكنائس قائلًا :"وهناك كنائس أخرى، سواء في بابليون أو القاهرة" [٥].

وبعد ذلك انتقل أنسيلم أدورنو بالحديث عن عناصر السكان في القاهرة وتميز حديثه بالاختصار عن أهل الذمة دون الإشارة إلى ملابسهم ولا تعدادهم، فذكر أن المدينة يسكنها بصفة عامة عدد كبير من المسيحيين وهم يشبهون المسلمين ولا يختلفون عنهم إلا بالديانة والملبس دون الإشارة إلى ملابسهم في حديثه، وأضاف كذلك أن هؤلاء المسيحيين هم أشد عدواةً للفرنج المسيحيين ولا ينبغى أن يوثق بهم قط[٦]، كما أشار أنسيلم أدورنو" أن اليهود ليسوا محبوبين بمقدار المسيحيين الشرقيين"[٧]. غير إن مدونات الرحالة الأوروبيين قدمت لنا معلومات أكثر تفصيلًا عن أهل الذمة، فقد أورد أرنولد فون هارف كيفية التعرف على عناصر السكان قائلًا: "إنه من السهل التعرف بالنظر إلى عمائمهم، فالمسيحى عمامته زرقاء اللون والمسلم بيضاء، واليهودى عمامته صفراء[٨]. والواقع أن رواية أرنولد فون هارف تتسم بالواقعية، فقد تمايزت

(1) Joos Van Ghistele, levoyage en Egypte a.d (1482- 1483) , traduction introduction et notes de men Romée, Bauwens- Preaut, Vol (16) Xul, L'institut, francais d' archeology, Cairo 1976, P.19.
(2) Fabri, levoyage en Egypte, III, P. 528.
(3) Suriano, f., Treatise on the Holy land, Trans. Theophilus Bellorini, Jerusalem, 1948, P.127.
(4) Breydenbah, les saintes Péré grainations, P. 55.
(5) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 187.
(6) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 189.
(7) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 189.
(8) Harff, The pilgrimage , P. 113.

ملابس أهل الذمة عن المسلمين حتى يمكن التفرقة بينهم في زحام الحياة اليومية، وكانت تلك القيود المتعلقة بملابس أهل الذمة ومظاهر نشاطهم اليومي علامة على الامتهان والذل لهم[١].

وبالنسبة لعدد مسيحى مصر في القاهرة، فقد اختلف تعدادهم من رحالة لآخر، فقد أورد الرحالة جوس فان غستال عام ١٤٨٢م "أن هناك ثمانية عشر ألفًا من المسيحيين يقيمون بمدينة القاهرة منهم أقباط مصر، وأثيوبيون، وأرمن، وجورجيون، ونوبيون"[٢]، على حين ذكر جان ثونو ١٥١٢م، بأن تعدادهم عشرة الاف منهم سريان وأقباط(مصريين)[٣]،غير أن الرحالة الإيطالي فريسكوبالدى لم يذكر أي رقم بل اكتفي بالقول: إن أعداد المسيحيين قليلة للغاية [٤] .أما بخصوص تعداد اليهود فيذكر الرحالة اليهودى ميشولام بن مناحم أن عدد يهود القاهرة عام ١٤٨١م، بلغ ثمانمائة أسرة من اليهود الربانون[٥] ومثلهم من القراؤون[٦] ونحو خمسين أسرة من اليهود السامرة[٧] في الوقت الذي قدرهم الرحالة بومجارتن عام ١٥٠٧م، بنحو خمسة عشر الف

فايز نجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة في عينى الرحالة أرنولد فون هارف ١٤٩٧م/ ٩٠٢هـ، دار النهضة المصرية، القاهرة، د.ت ، ص ٨٢.

(١) للمزيد انظر: قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، ص١٤٧، ١٥١.

(2) Ghistele, levoyage en Egypte , P.20.

(3) Jean Theaund, le voyage d'Outremer de Jan Theaund, suivi de la relation de L' Ambassade de Domenice Trevisan aupres du Soudan d'Egypte 1512, Bublie et annote par ch. Schefer, paris, 1984, P. 51.

(٤) فريسكو بالدى، رحلات إلى الأراضي المقدسة، ترجمة شيرين إيبش، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، ٢٠١٠م، ص ٨٠.

(٥) الربانون: وهم أشهر الطوائف اليهودية، وشكلوا أغلبية بين يهود مصر في تلك الفترة، والأسم مشتق من كلمة "ربي" أو "رباني" المأخوذة من كلمة " ربانيم" العبرية، ومعناها الإمام، أو الحبر، أو الفقيه، وقد استخدموا الحساب في معرفة تقويمهم وتواريخهم وحساب مواعيد أعيادهم .للمزيد انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار،المجلد٤، ج٢، ص٩٤٠؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٣٣-٣٤.

(٦) القراؤون: تشتق من المصدر "قرأ" بفتح وضم ممدود والألف ساكنة، ومعناه قرأ، وذلك لأنهم لم يعترفوا بغير(المُقرا) ، أي ما يقرأ فيه وهي التوراة، ولم يتقيدوا بالتلمود، ويعتمدون على الأهلة في تقويم وحساب أعيادهم ومواسمهم ، مما أوجد أختلافا بينهم وبين الربانين، وكانوا يأتون بعد الربانين من حيث العدد، ولكنهم أكثر منهم ثراء. للمزيد انظر: القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن علي، ت ٨٢١/١٤١٨م)، صبح الأعشي في صناعة الإنشا ، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ج١٣،ص ٢٥٦-٢٦٧؛ ميشولام بن مناحم، الرحالة اليهود، ص ٢٢٤؛ محاسن محمد الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٢٠-٢٢١.

(٧) السامرة: وهم أتباع السامريَّ الذي أخبر الله تعالي عنه بقوله في سورة الأعراف (وأصلهم السامريُّ)، وكان القراؤون والربانيون ينكرون السامرة من اليهود، لكن السلطات المصرية اعترفت بهم واعتبرتهم من فرق

يهودى[١]، إلا أن الرحالة الإيطالى عوبديا جاريه دابرتينورو Obadia Jaré de Bertinoro عام ١٤٨٧م، قَدَّرهم بحوالى سبعمائة أسرة مقسمين على النحو التالى: خمسون أسرة من السامرة، ومئة وخمسون من القرائين، والبقية من الربانيين[٢] . ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن أقرب تقدير لعدد اليهود هو أنهم ثمانية آلاف أو تسعة آلاف وليس خمسة عشرة ألف يهودي، وبالرغم من هذا التفاوت في التقديرات إلا أنها تتفق على أن أهل الذمة كانوا أقلية داخل مجتمع القاهرة الإسلامي الكبير.

لم يقتصر اهتمام هذا الرحالة الحاج على إبراز المعالم الديموجرافية، بل اهتم أيضًا بالتعرض **لاقتصاديات القاهرة**، حيث سجل رؤيته لعملية تفريخ الكتاكيت قائلًا: عملية تفريخ الكتاكيت كانت تقوم بالطريقة التالية: بأن يوضع البيض في أفران ذات حرارة معتدلة، مما يتيح للجنين أن يتطور بمعزل عن حضانة الدجاجة الطبيعية، وهكذا تخرج الكتاكيت في الوقت المراد[٣]، واستكمل حديثة بأن هذه الأفران متوفرة في القاهرة ومتاح للجميع أن يستخدمها[٤].واتفق كلامه مع ما ذكره الرحالة إيمانويل بيلوتي Emmanuel Piloti(١٣٩٨–١٤٤١م)، والذي قال:" إن معامل التفريخ كانت موجودة بكثرة في المنطقة الواقعة بين القاهرة وبابليون فتلك المنطقة كانت عامرة بمعامل التفريخ، إذ كان يتم وضع حوالى سبعة الآف إلى ثمانية الآف بيضة طازجة يتم جمعها من ربوع المدينة، وذلك في أفران مخصصة لذلك، وكانت تتم عملية التفريخ في

اليهود، وكانوا أقلية ضئيلة العدد بين يهود مصر، القلقشندي، صبح الأعشي، ج١١،ص٢٦٨-٢٦٩؛ ميشولام بن مناحم، الرحالة اليهود، ص ٢٢٤؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص٣٧-٣٩.

(1) Baumgarten, The Travels, P. 442.

(٢) وأضاف عدد السبعمائة أسرة حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة، وأكد أنه يوجد بالقاهرة خمسون أسرة يهودية ممن تم طردهم من إسبانيا، وجاؤو بحثاً عن ملجأ، وأضاف أن اليهود السامرة هم الأكثر ثراء من يهود القاهرة، ومنهم الصيارفة الإداريون، وأنه يقال إن أحدهم يمتلك مائتى ألف قطعة ذهبية وبرغم من ذلك فإن اليهود يتظاهرون بالفقر والعوز فى البلدان العربية ويتسولون الناس. للمزيد انظر:

Obadia Jaré de Bertinoro, le letters of Obadiah Jaré de Bertinoro, in Jewish travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan adler, London 1930, pp. 225-226.

علي أحمد السيد، اليهود في شرق البحر المتوسط القرن الخامس عشر الميلادي، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٩٣؛ إبراهيم سعيد فهيم، أحوال القاهرة، ومجاوراتها المنطقة الشرقية وسيناء، سنة ١٥٠٧م في يوميات رحالة أوروبي دراسة وصفية مصدرية مقارنة، مجلة كلية الآداب جامعة كفر الشيخ، العدد ٢٧ يونيو ٢٠٢٢م، ص ٣٣٥.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 189.

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 189.

شهور مايو ويونيو ويوليو من كل عام[١]، ويستخدم روث الحيوانات في عملية التدفئة، وبعد فقس الكتاكيت يتم بيعها، ويعيش على هذه الحرفة العديد من الأسر[٢] .

وجدير بالذكر أن عملية التفريخ حظيت بأعجاب عدد من الرحالة الأوروبيين، فكانت بمثابة أمرٍ غريب عنهم، لدرجة أن بعضهم ذكر روايات مبالغًا فيها، فيصف فليكس فابرى ذلك بأن المصريين توارثوا ذلك عبر الأجيال وبرعوا في التفريخ، لدرجة أنه ذكر تلك العملية بالتفصيل[٣] كما أورد عدد من الرحالة روايات مبالغًا فيها عن هذه العملية مثل الرحالة جوس فان غستال قائلاً: "إن أسراب الكتاكيت تتجه للشرب من المجارى المائية والنهر والتى بلغ عددها بنحو ستة آلاف أو سبعة آلاف كتكوت"[٤]، ويبقى للباحث ملاحظة أن أنسيلم أدورنو قد قدم إلى مصر في شهر أغسطس، وهذه الفترة لا تتزامن مع فترة التفريخ السابق ذكرها، إذ إن معامل التفريخ لا تعمل وبالتالي لم يشاهد عملية التفريخ وخطواتها على الطبيعة، ما يؤكد أنه استقى معلوماته من العاملين في معامل التفريخ.

*** القصر السلطانى:**

وبوصفٍ موجزٍ قدم الرحالةُ البلجيكى أنسيلم أدورنو وصفًا للقصر السلطاني، فيقول: في القاهرة قصر يرتفع في نطاق المدينة على تل صخرى قليل الارتفاع، وإنه جميل ومتين وحجمه ضخم، عريض وطويل على غرار مدينة صغيرة تزينه مبان رائعة، ويسكنها المماليك من خدم السلطان وأمُرائه، والذى لا يقل عددهم عن ستة آلاف من الفرسان، ويتحمل السلطان تكلفة

(1) Fabri, levoyage en Egypte,II,p.480;III,P.924.

(2) Piloti, L egypte Au Commencement Du Quinzieme Siecle, Le Caire, 1950,pp,38-40.

(٣) أشار فابرى، أنه تتم تلك العملية في منزل مرتفع قليلًا يتسم بالطول والعرض، وفي داخل هذا المنزل عدة أفران منخفضة يتم وضع البيض فوق تلك الأفران، ويتسع الفرن أحياناً لعدة آلاف من البيض، وأن معامل التفريخ كانت تتلقى من النساء البيض المراد تفريخه، وفى الموعد المحدد للتفريخ يتم إشعال الأفران بنار هادئة ومنتظمة كأنها تدفئة طبيعية فتنمو الكتاكيت الصغيرة رويدًا رويدًا داخل ذلك البيض، وبعد عدة أيام ترى الكتاكيت النور، وتسلم الكتاكيت إلى أصحابها مقابل أجر، وتتم هذه العملية في شهور مايو ويونيو ويوليو. للمزيد انظر:

Fabri, levoyage en Egypte, II, P. 479- 481; III, PP. 924- 929.

(4) Ghistele, Le voyage, P. 56.

إقامتهم وشرابهم وإطعامهم[١] كما يدفع لهم بجامكية[٢]. وربما السبب في عدم وصف أنسيلم أدورنو للقصر بإسهاب لأنه لم يتمكن من دخول القصر السلطانى.

غير أن هناك رَحَّالة قُدرَ لهم دخول القصر السلطاني ومقابلة السلاطين المماليك فقدموا وصفًا دقيقًا لقلعة الجبل والقصر السلطانى، أمثال الرحالة فون هارف والذى قال: "إن المرء يمر من خلال أثنتا عشر بوابة قبل الوصول لقصر السلطان، فعندما تدخل البوابة الأولى يوجد على اليمين مبنى كبير وبه حجرات عديدة حيث يتلقى شباب المماليك دروسًا في القراءة والكتابة والتدريب على طريقة القتال بالرمح وكيفية استخدام القوس للدفاع عن النفس والرمى، كما أنه رأى بعينيه خمسمائه مملوك من الغلمان الصغار يشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً، ثم يقول دخلنا من ست بوابات، حيث يعيش فيها كل أنواع الصناع والحرفيين والناس، ومن يخدمون السلطان يوميًا، ثم دخلنا البوابة السابعة، ورأينا عن اليد اليسرى مسجدًا غاية في الجمال والروعة في البناء، حيث يصلى فيه كبار الأمراء يوميًا، ثم وصلنا إلى البوابة الثامنة، حيث توجد ساحة كبيرة مربعة فيها حوالى ستة عشر ألفاً من المماليك، وهنا يجلس السلطان تحت خيمة على سجاجيد رائعة ويضع قدمية تحته مثل جلوس الخياط في بلادنا ويقف بجواره أميران كبيران، وهكذا يجلس السلطان في هذه الساحة ثلاث مرات تقريباً في الأسبوع، أما البوابة التاسعة، حيث يوجد إسطبل السلطان الذى يحتفظون فيه بالخيول، ثم شاهدنا ثلاث بوابات عليها حراسة شديدة ووصلنا إلى غرفة السلطان خاصة[٣]. ويمكننا القول أن الوصف الذى قدمه الرحالة عن القصر السلطانى يتفق في مجمله مع ما ذكره المقريزي" بأنه بناء عظيم مرتفع يحيط به سور ضخم به عدة أبواب وبداخل ذلك السور توجد ديار وقصور عديدة وحمامات وأحواش، كما توجد طباق واسعة للمماليك السلطانية هى اثنتا عشر طبقة كل طبقة منها بقدر حارة تشتمل على عدة

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 189.

(٢) الجاميكيات: ومفردها جاميكية، وهي لفظ فارسي مشتق من جامة بمعني اللباس، أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي، وقد ترد بمعني الأجر أو المنحة، والجمع جاميكيات وجوامك. محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٠م، ص٥١.

Ghistele, voyage, P. 80; Baron, P. Anglure, le Saint Voyage. Pe, Jerasalem et l'Egupte, Paris, 1858, P. 162.

بيرو طافور، رحلة طافور عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، ص ٧١.

(3) Harff, the pilgrimage of Arnotd, P. 108.

منال محمد السيد، بعض مظاهر الحياة في القاهرة فى ضوء رحلة الرحالة الألمانى مارتين بوم جارتن، مجلة المؤرخ المصرى، يناير ٢٠١٩م، جـ ١، ص ٢٤٧- ٢٤٨؛ فايز نجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة، ص ٣٢- ٣٣.

مساكن بحيث تتسع كل طبقة منها بقدر حارة تشتمل على عدة مساكن بحيث تتسع كل طبقة لألف مملوك"[١] .

*** الأهرامات:**

لفتت أهرامات الجيزة أنظارَ الرحالة أنسيلم أدورنو، وأثارت إعجابه وإبهاره "... ومقابل بابل ما وراء النهر من جانب الصحراء الممتدة بين مصر وأفريقيا ترتفع عّدة صروح قديمة هرمية الشكل، اثنان منها مبنيان بحجارة ضخمة وبحجم وعلوّ مدهشين[٢]، كما يحسب لأنسيلم أدورنو عدم وقوعه في خطأ أن هذه الأهرامات بمثابة أهراء[٣]، بل ذكر أنها مدافن لشخصيات قديمة[٤] معللًا ذلك بعينيه الثاقبتين وذكاءه الحاد إذ لا وجود لأى مكان يتاح فيه وضع محصول سنة لحفظه؛ وذلك لأنها من القمة إلى الأسفل عبارة عن حجارة ضخمة متصلة بعضها ببعض، ليس فيها إلا باب صغير، على علوّ لا يأمن به من على سطح الأرض، وطريق ضيق ومظلم ينزل فيه إلى غرفة، من غير أن تشاهد في أي جانب منها غرفة واسعة ورحبه، بما لا شك فيه أنها قبور[٥]، وبذلك يكون الرحالة أنسيلم أدورنو أول الرحالة الأجانب الذى صحح ذلك القول.

كما كان له قصب السبق في القول: "وجود مدخل للأهرامات يستطع الناس من خلاله الدخول إلى جوفها "، غير أن هناك رحالة قدموا بعده مثل فون هارف الذي تخيل أن الهرم بناء عبارة عن كتلة واحدة من الأحجار الضخمة ولا يوجد به مدخل[٦] أما الرحالة دومنيكو ترفيزان فقد ذكر أنه وجدت في عصر قريب فتحه للهرم بعد أن كان يظن الناس أنه بناء أصم[٧].

يعودّ أنسيلم أدورنو مرة أخرى ليصف السلطان والأمراء المماليك والشعب وكانت روايته إلى حد كبير منُصفة للمماليك على عكس عدد من الرحالة الأوربيين الآخرين، فيقول: "ففي القاهرة أناس محترمون ويتميزون بذلك، فإنها مدينة ملكية، حافلة بالثراء، ويقيم فيها على الدوام الأمير، بدا لنا مع ذلك أنها أفضل وأكثر إنسانية عن أماكن أخرى، ولم نتعرض لأى مضايقات وشتائم

---

[١] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار، المجلد الثاني، ص٤٢١.

[2] Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 191.

[٣] حدث خلط لدى عدد من الرحالة الأجانب بين الأهرامات وصوامع الغلال، وأنها كانت صوامع غلال يوسف، والتى بناها لتخزين القمح لمدة سبع سنوات عجاف.

Ghistele, voyage, P. 80; Baron, P. Anglure, le saint voyage. Pe, Jerasalem et l'Egupte, Paris, 1858, P. 162.

بيرو طافور، رحلة طافور عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، ص ٧١.

[4] Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 191.

[5] Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 191

[6] Harlf, the pilgrimage of Arnotd, P. 126 – 127.

[7] Trevisan, voyage, PP. 197- 198.

"[١].وأورد أن عدم تعرضهم للضرب والشتائم بسبب" أنهم تجولوا حفاة الاقدام عبر المدينة على غرار المصريين ومرتدين ملابس كالمسيحيين المساكين من ذوي الحزام، ولا أحد التفت إلينا، بسبب الجمهور المتزاحم في الشارع، ولا أحد حدّق فينا"[٢].

والناظر في كتابات الرحالة الأوربيين للقاهرة دائماً ما يذكرون تعرضهم للشتائم والضرب من قبل العامة، وهو ما ذكره الرحالة بومجارتن عن تعرض أحد رفقائه للضرب من قبل أحد المماليك، لأنه امتطى ظهر أحد البغال وتصادف مروره على أحد المماليك الذى طرحه على الأرض بمنتهى القسوة والشدة، كما أنه فور وصوله للقاهرة استقبله أطفال المدينة برميهم بالقاذورات وقطع الطوب والليمون الفاسد[٣]. وكذلك ميشولام بن مناحم الذى يقول : "والمسلمون يعاملون الناس معاملة سيئة، إنهم يحتاجون إلى أن يكونوا موضع ثقة خوفًا من الحكومة، لا يجرؤ يهودى ولا غير اليهودى، أن يشير إلى المسلم، وإلا يقطع إصبعه الذى يشير به أو أن يقتله"[٤]. وجدير بالذكر أنه من بين القيود التي فرضت على الأقليات الدينية، فقد حرم عليهم ركوب الخيل، والتى كانت امتيازًا موقوفًا على الطبقة الحاكمة وحدها دون سائر المصريين، وكان على رؤساء طوائف الأقليات أن يلزموا أتباعهم بالحرص على مراعاة هذه القيود"[٥].

ومثل معظم الرحالة الأوربيين تناول أنسيلم أدورنو الحديث عن حيوانات مصر وأهميتها، فقد أشار إلى "**الزرافة**" بأن مقدمتها أطول بكثير من مؤخرتها ورأسها يشبه رأس التيْسُ بلا قرنين واقدامها بأظلاف منفتحه كأظلاف الثور، وهذا الحيوان مخطط بلونين الأبيض والأحمر، ورغم حجمه وارتفاعه؛ فإنه أليف وديع كالجمل[٦]. كما أنه شاهد أسود أليفة بالترويض فتجول في الشوارع بلا خوف[٧]، وأضاف أنسيلم أدورنو معلومة جديدة بأنه لم يشاهد الفيلة سوى في بلاط السلطان المملوكى فقط، ولم يكن متاحًا للجميع مشاهداتها، لأنها قد هلكت منذ عهد قريب[٨].

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 193.

(2) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 211.

(3) Baumgartin, the travels, P. 441, 453-455;Saletti,B., Vestiti ala Moreshe: Pilgrims in disguise in late Medieval Accounts , Annali online Dell Universita di Ferrara. Sezione Lettre 10/2,2015,p.202.

منال محمد السيد،" بعض مظاهر الحياة في القاهرة في ضوء رحلة الرحالة الألماني مارتين بوم جارتن أواخر عصر سلاطين المماليك"، مجلة المؤرخ المصري، العدد ٥٤، ٢٠١٩م، ص ٢٥٣.

(٤) ميشولام بن مناحم، الرحالة اليهود، ص ٢٢٨ ؛ منال محمد السيد، بعض مظاهر الحياة فى القاهرة، ص ٢٥٢.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١٣،ص٣٩٢.

(6) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 193.

(7) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 193.

(8) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 193.

إلى جانب ذلك تناول أنسيلم أدورنو دور "الجمل" في نقل المياه للأغراض المعيشية مكتفيًا بقوله: "إن عدد الجمال التى تحمل الماء حوالى سبع مائة أو ثمان مائة وتطوف في كل يوم عبر المدينة، تحمل أوطاباً ضخمة من الجلد، لكنه لم يذكر عدد السقاة واكتفي بذكر عدد الجمال(١) كما أكد بأن مياه نهر النيل هي المورد الوحيد الذي يعتمد عليه المصريون فى الشرب(٢)، إلا أن هناك رحالة بالغوا في العدد منهم جان ثونو مشيرًا بأن عدد السقائين بلغ مائة ألف، وهو رقم مبالغ فيه(٣) وقدرهم أرنولد فون هارف سنة ١٤٩٧م، بحوالي عشرة آلاف رجل يحملون المياه على ظهورهم طوال ساعات النهار فى قرب جلد الماعز ويبيعونها فى أنية صغيرة، وذكر أن عدد الجمال حوالى عشرين ألف جملٍ(٤). إلا أن مارتن بومجارتن قدر تعددهم بقوله: "إنه ما يزيد عن ثمانية آلاف يتكسبون عيشهم من حمل المياه، بعضهم لديهم جمل وآخرون لديهم جملان وبعضهم خمسة جمال للقيام بذلك العمل(٥).بينما ذكر ميشولام بن مناحم أن عددهم قُدّر بحوالى أربعة آلاف ساقٍ وزاد على ذلك بوصفه بأن المياه أحلى من العسل وبأنها من جنات عدن، والإنسان قد يشرب ملء البطن منه ولا يشعر بألم، والماء متوفر فى كل وقت(٦).

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 193.

(2) Adorno, Itineraire d'Anselm . P. 193.

(3) Thenaud, le voyage d'Outremer, P. 47.

فايزنجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة الفرنسي جان ثونو(مارس سنة ١٥١٢م/ المحرم سنة ٩١٨هـ) دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوروبيين المعاصرين، مجلة كلية الآداب ، جامعة قناة السويس ، ابريل ٢٠١١م، ص ٢٦٠.

(4) Arnold von Harff, the Pilgrimage of Arnold von Harff, Trans, Malcolm. Hakluyt Society, 2nd ser. N. 94. London, 1946, P. 111.

فايز نجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة أرنولد فون هارف ١٤٩٧م/ ٩٠٢هـ، دار النهضة المصرية، القاهرة، د.ت ، ص ٨٢.

(5) Baumgartenm, the travels, p. 442 .

(٦) ميشولام بن مناحم، الرحالة اليهود ، ص ٢١٩؛آن وولف، كم تبعد القاهرة، ترجمة قاسم عبده قاسم،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٠٦.

* معالم القاهرة المباركة:

نبات البلسم(البلسان) [١] وأهميته:

وبالفعل سجل أنسيلم أدورنو بل وجَسَّد اهتمام ليس المسيحيين المحليين فحسب وإنما مسيحي الغرب الأوروبي الكاثوليكي بزيارة المطرية لرؤية شجرة البلسم بإسهاب، قائلاً: إنه توجَّه إلى المطرية وبصحبته الترجمان ركوبًا على الحمير، وكان ذلك في الرابع عشر من أغسطس، إلى تلك المنطقة التى تباركت بلجوء عائلة السيد المسيح عليه السلام هرباً من الحاكم هيرودوس[٢].

ولا يدع أنسيلم أدورنو الفرصة حتى يذكر حدوث معجزتين[٣] عن هذا المكان المقدس أولى هذه المعجزات: انه بقدوم السيد المسيح والسيدة العذراء إلى المكان لم يجدوا ماء، ألا أنه حدثت معجزة فتدفق الماء، والذى مازال موجودًا حتى الآن، وأنه ماء فائق الجودة، صاف وله قوة خارقة، والذى يروى ماء بستان البلسم، وتتم عملية رى البستان عن طريق ثورين كبيرين يجران عجلتين من الخشب حتى تسكبان الماء في البستان، وهذان الثوران يعملان بحرية ويرفضان العمل في حالة تعرضهما للضرب بالسوط والمهماز، وفترة عملها من غروب مساء السبت وحتي آخر مساء الأحد[٤].

أما المعجزة الثانية، ويدعى أنسيلم أدورنو بأن الذى حكاه له هو أحد المسلمين قبل قدومه بعدة سنوات، مفاداها: "أنه جاءت سيدة حامله لطفلها لتغسله بعد إنجابها، فسقط الطفل فجأة في ماء نبع البلسم، فأخذت السيدة تنوح وتنتّحب لسقوط طفلها، إلا أنه بمجرد تشغيل إحدى عجلتي الخشب بواسطة الثور، ظهر الطفل بمعجزة واقفًا عليها، وهو يلعب وبصحة جيدة ويبتسم لأمه"[٥]. لا غرابة في ذلك فقد كثرت في العصر المملوكي أخبار المعجزات، وطبيعى يحاول أنسيلم أدورنو أن يلقى صفة القداسة على المكان.

---

(١) هو شجرة عطرة الرائحة تشبه الحناء والرومان في الشكل، وارتفاعها نحو متر ونص إلى مترين . للمزيد انظر: محمد دسوقي محمد حسن، نبات البلسم في مصر والشام عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، مجلة الإنسانيات ، كفر الشيخ،٢٠١٤م العدد ٤٢ ،ص٥٥-١١٠.

.

بيروطافور، رحلة طافور عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، ص ٧١.

(2) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 193.

(٣) توافرت عدة روايات حول كيفية نمو البلسم لأول مرة فى مصر وجميع هذه الروايات يغلب عليها طابع القداسة والتعظيم. للمزيد انظر:

Fabri, levoyage, I, P. 390, III, P. 898; Ghistele, levoyage en Egypte, P. 73.

حامد عبد الله، مصر فى كتابات فليكس فابرى، ص ٣٤٨.

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 195.

(5) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 195.

وعلى نفس النهج فقد ذكر عدد من الرحالة الأوربيين في أواخر العصور الوسطى عددًا من القصص الخرافية مثل الرحالة اليهودى ميشولام بن مناحم قائلاً إنه كان له صديق اسمه محمد والذى جرح أصابع قدمه بفأس بينما كان يقطع الخشب، لدرجة أن إصبعه كاد أن يُقطع، لكنه لما وضع على جرحه بعضًا من نبات البلسم، شفى الجرح خلال ثلاثة أيام دون أن يكون هناك أثر للجرح[١].

واستكمل أنسيلم أدورنو حديثه عن عظمة البستان بقوله: وبقينا في بستان البلسم إلى أن وجدنا "شجرة تين فرعون" وهى كبيرة مغرقة في القدم، وهى منشقة وفائقة وسبب الشق والميلان يعتقد في أنها تعود إلى زمن مرور السيدة مريم العذراء، فإنها تشققت ومالت تعبيرًا عن إكرامها، واحترامها، ومفسحة لهما عسى أن يتذوقا ثمرها[٢].الرجل يفسر كل شيئ تفسيرًا دينيًا وهو هنا ولأنه مسيحي يحاول إضفاء القداسة على الشجرة.

وقدم أنسيلم أدورنو سبب عدم نمو البلسم إلا في المطرية فقط دون الأماكن الأخرى في مصر قائلاً: وهذه النبته لكى تنمو لابد أن يتحقق شرطان أولهما: الموقع، لأن هذه النبته لا تنمو ألا حيث أقامت العذراء القديسة، وثانيهما: الماء الذى مرّ ذكره الذى يرويه، وإلا فلا يمكن لهذا النبات أن ينمو، وياله من دليلٍ عظيم عن إيماننا، ففي الحقيقة نبته البلسم لا تنمو في أى مكان آخر في العالم إلا هناك[٣].ونظراً لأهمية هذا النبات، فقد وضع السلطان المملوكى حراسة على هذا المكان خاصة في وقت نضوجه في شهر مارس[٤]. هذا النبات ينمو في كل مكان، ومن ثم فإن قول أنسيلم أدورنو بأنه لا ينمو سوى في المطرية بعيد تمامًا عن الواقع.

واتفق الرحالةُ أنسيلم أدورنو مع عددٍ من الرحالة في وصف حجم وطول نبات البلسم فقال:"ليست كبيرة ولا مرتفعة وتشبه عيدان الكرمة الدقيقة وهذه العيدان متوسطة الحجم أو صغيرة[٥]، وأورقها

---

(1) Meshulham Ben R., Menahem of volterra, Itinerra of Robbi meshullam Ben R. Menahem of volterra 1481, in: Jewish travellers., ed. Alder, N.C., London 1930, P. 175.

(2) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 195.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 195.

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

(٥) اتفق الرحالة فليكس فابرى معه بقوله :" إن شجرة البلسم لم تكن عالية ولكنه لم يحدد ارتفاعها بالتقريب"، Fabri, levoyage en Egypte, I, P. 39; 111, P. 903، وكذلك الرحالة طافور "قال إنها "تبدو كشجرة عنب، طافور، رحلة طافور ، ص ٧٠، وأيضاً الرحالة جوس خان غستال فقال: إنها "تصل لارتفاع الركبة أو أعلى قليلاً، وعندما تغرب الشمس تراها كما لو أنها ستختفى وتجف فى المساء، ولكن بمجرد طلوع الشمس تفتح وتعدد كما كانت للمزيد انظر: .Ghistele,Le Voyage,p.74,

.

صغيرة وخضراء[١]، والأريج الذى يتساقط من هذه الأوراق هو البلسم، وأوضح أن المنتجات المعروفة بفاكهة البلسم وخشب البلسم، يتم استخلاصها من العصرة الأولى أو الثانية[٢]، وللتأكد من سلامة البلسم وجودته يوضع على اليد مع عرضها على الشمس، فإذا حرق الجلد كان جيدًا[٣].

كذلك اتفق الرحالة أنسيلم أدورنو مع الرحالة فليكس فابرى بأن السلطان المملوكى يهدى البلسم المستخرج إلى عدد من الملوك جيرانه بمناسبة ترسيمهم ملوكًا وسلاطين[٤] لدرجة أن والد أنسيلم اهداه السلطان قارورةً صغيرة من البلسم ونظراً لقدسيتها ضمها والده إلى ذخائره مع المركب العائد إلى بروج[٥].

* **<u>السلطان، نفوذه، ماله، والمماليك:</u>**

يعد الرحالة أنسيلم أدورنو من أقدم الرحالة الأوربيين الذين فهموا طبيعة الحكم في مصر فجاء بعده عدد من الرحالة ليسيروا على نهجه في وصف أوضاع الحكم والتولية والعزل في الدولة المملوكية، وفى ذلك يشير بأن السلطان المملوكى هو أعلى سلطة حاكمة في مصر، وأنه يتولى السلطة بالانتخاب أو بقوة السلاح تطبيقاً لمبدأ "الحكم لمن غلب"[٦]، ولا يتولى هذا المنصب بحق الوراثة[٧] كما أن المماليك هم من يتدخلون لتولية سلطانهم ولن يتأتى هذا المنصب دون موافقة السلطة الروحية ممثلة في الخليفة العباسى، الذى يقدم له قسم الولاء وأن يلتزم بالعدالة وبحماية البلاد من العدو[٨]

---

[١] ذكر جوس فان غستال :" أن أوراق شجرة البلسم مسننة مثل أوراق الغاب بقوله: "وفى كل غصن صغير يتدلى نحو الأرض، يوجد عدة أوراق صغيرة، مسننة مثل أوراق الغاب الممتلىء بالشوك".
Ghistele, Le voyage, P. 74.

(2) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

[٤] وقد ذكر الرحالة فليكس فابرى، هؤلاء الملوك الأربعة وهم ملك الشام، حاكم الهند، خان التتار، ملك الحبشة
Fabri, levoyage en Egypte, I, 394; III, P. 905

(5) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

[٦] مبدأ الحكم لمن غلب: تقرر هذا المبدأ منذ بداية الدولة المملوكية، فقد اعتقد امراء المماليك أن عرش البلاد حق جميعًا يفوز به أقواهم واقدرهم على الايقاع بالآخرين .للمزيد :قاسم عبده قاسم،عصر سلاطين المماليك السياسى والاجتماعى، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية ، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٦٣.

(7) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

[٨] اعتمد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين أحدهما يتمثل فى القوة العسكرية للسلطان والتى يجسدها مماليكه، ويتمثل الجناح الثانى لقوة السلاطين فى اعتمادهم على الواجهة الدينية التى حرصوا على

ولم يذكر أنسيلم أدورنو اسم السلطان الجالس على سُدَّةِ الحكم، بل اكتفى بالقول إن السلطان الراهن لم يتول السلطنة إلا منذ ثلاث سنوات[١] ويقيم في قصره بالقاهرة، ولا يغادره إلا قليلًا جداً، خشية أن تنتزع منه السلطة في غيابه، كما انتزعها هو نفسه من غيره بالقوة[٢] .

ويرى الباحث أنه كان من عادة الرحالة الأوروبيين ذكر اسم السلطان، غير أن الزوّار لم يروا السلطان قايتباي، لذلك لم يشغلهما ذكر اسمه. كما أنه سقط في خطأ تاريخي بأن السلطان يقيم في قصره ولا يغادره؛ لأن السلطان المملوكى، كان في أوقات كثيرة يتحرك ويسافر، ويترك السلطنة لنائبه، وهو منصب كان معروفًا باسم نائب الغيبة[٣].

ثم ينتقل أنسيلم أدورنو للحديث عن صفات وهيئة السلطان المملوكى(قايتباى) قائلًا: "إنه شخص نحيل، طويل القامة، بجرأة الأسد شعره أبيض[٤]، ويتمتع بالشجاعة والقوة وتحت إمرته ثلاثون أو أربعون من المماليك منتشرين عبر البلاد بأسرها[٥].ربما قدم له أحد التراجمة هذا الوصف عن السلطان المملوكي لأن أنسيلم أدورنو لم يره بعينيه.

كذلك لاحظ أدرونو مدى أهمية الأمراء المماليك بالنسبة للسلطان المملوكى، الذى كان يراهم حصونه وأسواره المانعة، وكانت العلاقة بينهم علاقة قوية فيقول: "فقد كان جميع المماليك

التخفى وراءها طول ذلك العصر، وهذه الواجهة فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة وبناء المساجد. للمزيد انظر، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧.

Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197

(١) هو السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي، تولى السلطنة عام ١٤٦٨م/٨٧٢هـ، وظل في الحكم حتي عام ١٤٩٦م/ ٩٠١هـ.للمزيد انظر: الجعفري(ناصر الدين الشافعي، ت ٨٨٧هـ/١٤٨٣م)، سيرة السلطان الأشرف قايتباي حوادث عام ٨٧٢هـ- ٨٨٥هـ، تحقيق محمد جمال الشوربجي، نور حوران ، سوريا، ٢٠٢١م، ص٥١.

(2) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

(٣) نائب الغيبة: وهو الذى يقوم بعمل السلطان فقط، إذا غاب عن البلاد وإذ لم يوجد نائب السلطنة (نائب الحضرة) فيكون لقبه (نائب الغيبة) ويلوح أنه أقل درجة ومقاما من نائب السلطنة بالقاهرة. القلقشندي، صبح الأعشي، ج٤، ص١٧-١٨؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م، ج٢، ص٤٣؛ محمد عبدالغني الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر، الهيئة المصرية العامة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ٨٥.

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199.

(٥) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 197.

خدم السلطان وعبيده، فإنهم معه أسياد البلاد ويختارونه بينهم[١] والسلطان بمثابة السلطة العليا، وهو بدوره يعينهم في الدوائر والمناصب المختلفة[٢].

ويحسب للرحالة أنسيلم أدورنو أنه أول من تحدث عن أرباب السيوف (أى العسكريين من فرسان المماليك) وقدر له معرفة تقسيمات أرباب السيوف، دون أن يذكر المسمى المتعارف عليه، فتحدث عن أمراء المئين مقدمى الألوف بأنهم يعتبرون أسياد ألف حربة (فارس)، وأن لهم هيئتهم، حيث يضعون على رؤوسهم طواقي طويلة أعلاها أخضر وأسفلها أسود[٣] وكذلك أمراء الطبلخاناة[٤] وأمراء العشرات[٥] وأمراء الخمسات[٦] وأن كل هؤلاء الأمراء يقيمون على الدوام إلى جانب شخصه أو في القصر، ويوجه بعضهم، لتولى المدن الأخرى[٧].

ويرى الباحث أن سبب وصف أنسيلم أدورنو للنظام السياسى في دولة المماليك بشكل متعمق، كونه كان منتميًا إلى السلك الدبلوماسى وذو خبرات سياسية سابقة مكنته من معرفة النظام السياسى في مصر، ومعرفة طريقة الانتخاب والخلافة باعتباره أنه عاش في الدوائر الحكومية[٨].

وأشار أنسيلم أدورنو في رحلته إلى وصف المماليك وتاريخهم وطبيعة علاقتهم بالمصريين، فقال: إن المماليك هم أسياد البلاد ويديرون كل شيء حسب رغبتهم وسلطتهم، وعلى الأهالى

---

(١) حكمت دولة سلاطين المماليك، عدة مفاهيم بينها العقيدة السياسية التى جعلت أمراء المماليك يعتقدون أن عرش السلطنة حق لهم جميعاً بلا تفرقه، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين.
قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧.

(٢) كان السلاطين يختارون لمماليكهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعاً، سواء فى دوائر البلاط أو فى إدارات الجهاز الحكومى.
للمزيد انظر، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢.

(٣) للمزيد انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ، صـ ١٤– ٣٧.
Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199.

(٤) الطبلخاناة: كلمة فارسية من جزئين، طبل وخاناة ومعناه بين الرتب العالية. للمزيد انظر: القلشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص١٣.

Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199.

(٥) امراء العشرات، ويكون لكل منهم إمره عشرة من فرسان المماليك؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٥.

(٦) امراء الخمسات، وكانوا قلة خصوصاً فى مصر، وربما كان أكثرهم من أولاد الأمراء الذين توفوا.

(7) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 199.

(٨) تم اختيار أنسيلم أدورنو من قبل جاك الثالث ملك بلجيكا ليقوم بالعمل على التفاوض بين بلجيكا واسكتلندا عام ١٤٦٧م، فلما نجح في مهمته، كافأه الملك جاك الثالث بأن قام بتوليته ولاية Corthuy . للمزيد انظر: Adorno, Itineraire d'Anselm. P. 8 .

(المصريين) أن يقدموا لهم فروض الولاء والطاعة والاحترام وإلا يكونُ مصيرهم الضرب والأهانة، وقد شاهد بنفسه تعدى المماليك على المصريين بالضرب(١). وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على أن الشعب المصري عاش القهر والظلم تحت الحكم المملوكي.

اتفق عدد من الرحالة الأوربيين مع أنسيلم أدورنو حول تعدى المماليك على المصريين، وفي ذلك يشير الرحالة بومجارتن "أنه شاهد بنفسه فى أحد شوارع القاهرة رجلًا يبكى بشدة ويصرخ ويلطم على رأسه وصدره، وعندما سأل بومجارتن عن سبب بكاء الرجل قيل له: إنه قد اشترى منزلاً بمبلغ كبير من المال، وعندما انتهى من تجهيزه قام أحد المماليك بالاستيلاء عليه بالقوة(٢) كذلك أشار فابرى بأنه شاهد اثنين من المماليك ينقضون على رجلين فى سن الكهولة فضربوهما بسياطهم وألقوهما من فوق حماريهما، بينما كان الناس يفرون فى كل جهة خوفاً منهما(٣).

ويرى الباحث أن الرحالة أنسيلم أدورنو كان محقًا فيما ذكر، فقد جاء أنسيلم أدورنو إلى مصر في عصر المماليك الجراكسة، والذي زاد فيه معدل التدهور السياسي الداخلى بفعل النفوذ المتنامى للمماليك الجلبان(٤)، وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم، ومن ثم تكررت حوادث الشغب والاضطراب التي كانوا يثيرونها، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق حتي أمست تلك الحوادث بمثابة النغمة الدالة على حياة المصريين آنذاك، وهناك بعض الأمثلة ذات الدلالة في هذا المجال عام ١٤٧٢/٨٧٧هـ، حينما هاجم المماليك الجلبان على أحد كبار موظفى الدولة(٥)، وفي العام التالي هاجموا الأمير

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199.
(2) Baumguarten, The Travels, P. 464- 455.
(3) Fabri, levoyage en Egypte, II, P. 437.

(٤) المماليك الجلبان أو الأجلاب : أطلق هذا الاسم على المماليك الذين كان يجلبهم سلاطين المماليك الأواخر، وكان معظمهم في سن البلوغ بعد أن أعتاد سلاطين المماليك الأوائل على شراء مماليكهم أطفالًا صغارًا يتعهدونهم بالتربية، والتنشئة الخاصة، حيث يشبه المملوك وقد دان بولائه لأستاذه الذي اشتراه، وقام بتربيته، أما هؤلاء الأجلاب فلم يكن لديهم أي ولاء لسلاطينهم لدرجة أنه كثيرًا ما ثار أولئك الجلبان على السلاطين وقاموا بعزلهم، وقد عاث المماليك الجلبان فسادا في أنحاء الديار المصرية .هداية إمام على ، المماليك الجلبان ودورهم في عصر دولة المماليك الجراكسة ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٣؛ نسرين مصطفي محمد، الدور السياسي للمصريين خلال عصر دولة المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ٢٠١٨م، ص١٤٣.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣،ص٨٢.

يشبك الدوادار[١] ففر منهم إلى مدينة الجيزة[٢]، الأمر الذي استدعى السلطان قايتباي على العمل على كبح جماحهم إلا أنه فشل[٣] ويتضح مما سبق مدى قسوة المماليك الجلبان مع المصريين وهو ما ذكرته المصادر المملوكية خاصة فى عصر المماليك الجراكسة.

ومما يثير الدهشة والاستغراب أن الرحالة أنسيلم أدورنو أبدى شماته كبيرة فى تعامل المماليك مع المصريين، فيقول: "... لكنى أرى أنه جدير بنا أن ننسبه إلى الحكمة الآلهية، التى تريد أن يكون من نصيب، هؤلاء الآثمين (المصريين) أن يتحملوا هذه السياسة وهذه السلطة التى تسرق عتادهم وأموالهم وزوجاتهم وبناتهم[٤].وشماتة أنسيلم أدورنو وغضبه من المصريين؛لإنهم لم يحاولوا القضاء على هذا الحكم. وعلى نفس النهج فقد أبدى الرحالة بومجارتن نفس الشعور المليء بالشماتة على حال المصريين بقوله: " لا يسمحون للمصريين بامتطاء صهوة الجواد، ولا حمل سلاح داخل المدينة، ولا للحصول على شيء إلا برضاهم كما لو كانوا عبيدهم الحقراء، وعلى المصريين إعطاء المنازل لهم وتوقيرهم عندما يمرون بهم وتقبيل اقدامهم، وإذا حدث وسمح لأى منهم بتقبيل يد مملوك، كان ينظر إلى ذلك على أنه عطف فردى منه، وكان ذلك بلا شك عقاب إلهى للمسلمين.." [٥]. والباحث من جانبه يرى أن هذا التفسير الدينى غير مقبول من بومجارتن.

ويتضح مما سبق مدى كراهية هؤلاء الرحالة للمصريين ولدولة المماليك، التى كان لها سلطان كبير على الغرب الأوروبى والتى قدر لها أن تفرض سيطرتها على الغرب مدة طويلة من الزمان، وهذا النهج الذى سلكه الرحالة ليس بجديد، وإنما يعبر عن روح العصر التى تميزت بالتعصب الدينى.

ثم يعود الرحالة أنسيلم أدورنو للحديث مرة أخرى عن المماليك ليصف هيئتهم الجسمانية فيقول: "وهؤلاء المماليك رجال طوال القامة وجميلو الطلعة[٦]، وأنهم ينتقلون فى المدينة سيراً على

---

[١] الدوادار : أى ممسك الدواة، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان ويقوم بابلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه، ابن تغري بردي(جمال الدين يوسف، ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،٢٠٠٨م، ج٦،ص١٥٢.

[٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣،ص٩٣-٩٤.

[٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣،ص٩٦؛ قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ص٢٤٠.

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199.

(5) Baumgarten, The travels, P. 454

إبراهيم سعيد، أحوال القاهرة ، ص ٣٦٨.

(6) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 201.

الأقدام، ويجلسون على سروج خيولهم المبطنة بالجوخ والمطرزة بالحرير، ولا يمتطون خيولهم قط فى البرية، بلا قوس وسهام وسيف ويحملون هذه الأسلحة دائماً. وأنهم قدموا إلى مصر كعبيد وأسرى من بلاد اليونان وإيطاليا وألبانيا وروسيا(١).وعلى الرغم مما ذكره عدد من الرحالة الأوربيين(٢) بأن هؤلاء المماليك القادمين من أوروبا تحولوا من المسيحية إلى الإسلام، إلا أن أنسيلم أدورنو قدم لنا رواية مختلفة فقال: إنهم ليسوا مسيحيين مرتدين بل لازالوا محتفظين بدياناتهم قائلاً: "ليس بالضرورة أن يكون مسيحيًا مرتد، لكنه فى كل الأحوال عبد مهّنته استخدام السلاح وإطلاق السهام بنوع خاص(٣). وأنسيلم أدورنو هنا يحاول خلق دورًا للمسيحيين في الجيش المملوكي.كما أنه قد جانبه الصواب، فقد عرف عن المماليك غيرتهم الشديدة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وظهر ذلك جليًا في قتالهم الشديد ضد أعدائهم من المغول والصليبيين.

كما تحدث أدرونو بإيجاز على فروسية وبراعة ومهارة المماليك القتالية، فقد شاهد عددًا من المماليك وهم يلتقطون أسهمهم من الأرض من غير أن يترجل عن فرسه و يكون الفرس على سرعة كبيرة(٤).

وبعينيه الثاقبتين استطاع أنسيلم أدورنو أن يصف ملابس المماليك، قائلاً: "بدلة المماليك طويلة وثقيلة وراقية وفاخرة تمتد حتى الكعبين تختلف عن بدلة المصريين(٥). كذلك يعطينا وصفًا

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199.
ويمكننا القول، بأن هناك عدد من الرحالة اتفقوا مع ما ذكره انسيلم من أمثال ذلك بومجارتن. للمزيد انظر:
Baumgarten, The Travels, P. 454

(2) وفى ذلك أشار بومجارتن: "أنهم جميعاً مسيحيون مرتدون ثم تعميدهم وهم صغار، ثم نبذوا لاحقاً إيمانهم، وتم ختانهم، وبعد ذلك حرق الصليب تحت أقدامهم كعلامة على أنهم ازدروا دين المسيحية. وأنه قابل فى القاهرة راهباً فرانسيكانيًا مرتدًا، وتبادل معه الحديث بشأن ردته وأنه تحول عن دينه طواعية إلى الإسلام وأصبح مملوكاً.
Baumgarten, The Travels, P. 454- 463 .

كما أن الفرنسى جان ثونو شاهد بدوره فى مدينة رشيد عام ١٥١٢م، رجلاً يونانياً تحول عن المسيحية إلى الإسلام، تم ختانه وأصطحب للمسجد . Thenaud, le voyage,P. 199-201
إبراهيم سعيد، أحوال القاهرة، ص ٣٦٩.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 199- 201

(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 201.

(٥) اتفق معه بدرومارتير انجلاريا فى ذلك الوصف، إلا أن زاد فى وصفه قائلًا: "وملابس المماليك كلها فضفاضة طويلة تصلها إلى الاقدام وهم يضمونها إلى أجسامهم بأحزمة، وهم لا يلبسون نعالاً، وإنما أخفافا ويتركون سيقانهم عارية .حسين مؤنس، سفارة بدرو مارتير وانجلاريا سفير الملكيين الكاثوليكين إلى السلطان الغوري، (ديسمبر ١٥٠١م/ فبراير ١٥٠٢م)، بحث منشور ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس أبريل ١٩٦٩م ، جـ ١، ص ٤٦٧.

دقيقًا للباس الرأس التى وصفها بأنها أنيقة وجميلة، فكان لباس رأس السلطان المملوكى عبارة عن قطعة من القماش الأبيض الناعم والملفوف المرفوع إلى أعلى ليشكل سبعة قرون ، بينما الأمراء الأقل رتبه من السلطان يكونون بنفس الهيئة لكن لباس الرأس مكون من خمس أو ست قرون حسب منصبهم(١)، أما المماليك العاديون فيلبسون نفس الطاقيات الطويلة، ولكنها حمراء ومزدانه بالفراء(٢).

* **حياة الأمراء المماليك:**

تناول أنسيلم أدورنو حياة المماليك فذكر أنهم عاشوا فى رفاهية عظيمة، وأنهم يقضون عمرهم فى البطالة والملذات وحياتهم قائمة على استغلال المصريين وغيرهم من الأجناس الأخرى، ويحذر أنسيلم من هؤلاء المماليك بقوله: "أحاديثهم عذبة ومغرية لكن أفعالهم غير متفقة معها، أعنى لابد من الحذر منهم وعدم تصديقهم(٣).

وأورد أنسيلم أدورنو أن سبب رفاهيتهم ما يقدمه السلطان من أموال ومرتب شهري كذلك ذكر الجامكية فى أسطر قليلة، دون أن يذكرها صراحة أثناء حديثه عن الأمراء المماليك، فيقول: "السلطان يقدم لكل هؤلاء المماليك مبلغاً مناسباً لمقامهم، فهم يعتبرون إذن بمثابة أسياد أغنياء"(٤)، وهنا نرى أن نظرة أنسيلم أدورنو نظرة أحادية، فقد تناول الأوضاع الاقتصادية للمماليك دون أن يتطرق إلى الأحوال الاقتصادية بشكل عام، فقد كان عموم الشعب يئن من غلاء الأسعار.

بعد ذلك أسهب فى حديثه عن البلاد التى يسيطر عليها السلطان المملوكى، فذكر أن كل مدينة وبما تمتاز به، فالسلطان، سيد مصر وسوريا برمتها فله فيهما فيلات جميله وقصور، ويوجد بمصر أكبر المدن مثل الإسكندرية وبابل ودمياط(٥)، وفى سوريا يملك السلطان عدة مدن مثل دمشق والقدس، عكا، وصور، وطرابلس، ومدينة حماة وأنطاكية وحلب(٦).

* **احتفال وفاء النيل وكسر الخليج:**

Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 201.

(١) وعلى عكس أنسيلم أدورنو يصف بدرو مارتير وأنجلاريا أنها ملابس خفيفة جافية، حسين مؤنس، سفارة بدرو مارتيرد أنجلاريا، ص ٤٦٨.

Adorno , Itineraire d'Anselm ,P. 201.

(٢) نفس هذا الوصف ذكره السفير بدرو مارتيردا انجلاريا، بعد مرور ما يقرب من ثلاثون سنة، حسين مؤنس، سفارة بدرو مارتير وانجلاريا، ص ٤٦٨– ٤٦٩.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 201.
(4) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 201.
(5) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 201.
(6) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 201.

ويحسب لأنسيلم أدورنو تزويدنا بوصف مفصل ورائع عن الاحتفال بفيضان نهر النيل، باعتباره شاهد عيان على هذا الحدث الجلل والذى شارك فيه جميع أطياف الشعب ويكون في مقدمة هذا الاحتفال السلطان المملوكى أو ما ينوب عنه من كبار الأمراء[١]، وبعينيه الثاقبتين قُدر لأنسيلم أن يصف ذلك الكرنفال وما يحدث فيه "إن كل عام يحتفل السلطان بعيد النيل، هو أو بواسطة كبير أمرائه، وجميع سكان المدن المجاورة يهرعون للمشاركة على ظهور خيولهم، أو سيرًا على الأقدام أو بالمراكب[٢]، كما أنه وصف دار المقياس دون أن يذكر مسماها: قائلاً: " يقع مقابل المدينة(القاهرة) مبنى شاهق الارتفاع وكبير كالقصر يقع جزء منه على شاطىء النيل فى المياه وعليها سلم بدرجات[٣]. ويستكمل أنسيلم وصفه بأن إذا أتم النيل فيضانه دون أن يذكر كم ذراعًا مقياس للنهر؟ تبدأ الاحتفالات بوصول السلطان على صهوة جوادة في موكب وأبهة عظيمة، بصحبة أمرائه ومماليكه على خيولهم بألجمتها وسروجها التى تبرق بالذهب والفضة[٤].

وتابع أنسيلم أدورنو حديثة عن الاحتفال قائلاً: بأن السلطان عندما يصل إلى النيل تكون هناك سفينة سلطانية[٥]، بانتظاره، والتى يصفها أنسيلم أدورنو بأنها غرفة مربعة الشكل مكشوفة جدرانها مكسورة برسوم محفورة ومذهبة ومفروشه بسجاجيد من الحرير مرصعه بالحجارة الكريمة يجلس عليها السلطان مع ضيوفه، كما أن للسفينة شراع من القماش الهندى المذهب، بارع الجمال، وحبال ملفته لمادّتها ونسجها وكل ما فيها[٦].كما أن هناك سفن للأمراء المماليك وإن كانت أقل من سفينة السلطان، إلا أنها كانت جميلة بأشرعتها الحريرية بعضها مطرزة وأخرى بأشرعة من اللين[٧] فيركب الامراء المماليك ومعهم زوجاتهم، وأن عددها بلغ حوالى إحدى عشرة

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, 205, 207.

قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، ص ٤٥.

(٢) دار المقياس، تقع فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة وهى عبارة عن برج عظيم حوله بسطتان تردان عنه مياه النهر وثمة أبنية كثيرة داخل هذا البرح ودائرة شبابيك وفي الناحية الشرقية من هذا المبنى شباك كبير، وهو الذى يعلق عليه الستر الخليفتى علامة الوفاء، بجوار هذا المبنى فسقية كبيرة في وسطها المقياس، وبين الفسقية والبرج باب. للمزيد انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٢٩٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص ٤٤.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 205.

(٤) كان بلوغ النيل ستة عشر ذراعاً بشيرًا بوفاء النهر، وإيذانًا ببدء ذلك المهرجان القومى الضخم. للمزيد انظر:قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٤٥.

Adorno, Itineraire d'Anselm. P. 205.

(٥) تطلق المصادر المملوكية على هذه السفينة، اسم حراقة السلطان والمعروفة باسم الذهبية، قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٤٦.

(6) Adorno, Itineraire d'Anselm, 205.

(7) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 205.

سفينة أو اثنتى عشرة سفينة(١). ويمكننا القول إنه باستقصاء المصادر المملوكية تبين لنا أن السلطان قايتباي لم يشارك في احتفالية وفاء النيل هذا العام وأناب عنه الأتابك جانبك قَلْقَسِيز (٢)، وهو ما يؤكده ما ذكرناه آنفًا بأن الرحالة البلجيكى لم يتسنى لهم رؤية السلطان بأعينهم بل حكى لهم عن صفاته وعن دوره في وفاء النيل وكسر الخليج.

وتستمر الاحتفالات بالعزف على الآلات الموسيقية بكل أنواعها، ثم يصل الموكب إلى موقع سد الخليج حيث يكون نائب السلطنة ومعه بعض كبار الأمراء منتظرين فوق قنطرة السد، ثم يتوجه السلطان بحصانة من فم الخليج إلى السد الترابى، حيث ينزل من حصانه ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ثلاث ضربات كأنه يقول أخرقوا السد" وبعد تدمير السد واختراقه على يد الحاضرين، يعود السلطان إلى صهوة حصانه وإلى البلاط السلطانى بأبهة عظيمة(٣). واتفق أنسيلم أدورنو مع ما ذكره الرحالة بيلوتى الكريتى، على قيام المصريين بتعظيم الاحتفال بوفاء النيل(٤).

ويتضح مما سبق أن الرحالة أنسيلم أدورنو صادف وجوده وقت فيضان النيل، وهو بذلك يعد بمثابة شاهد عيان ومن الرحالة القلائل الذين تحدثوا عن احتفالات وفاء النيل، وكان شاهد عيان على هذا الحدث العظيم ونقله لنا باستفاضة شديدة.

وتعرض أنسيلم أدورنو إلى مظاهر اقتصادية أخرى، حيث أشار إلى العملة المملوكية، فى ذلك الوقت، مقدماً لنا وصفاً لقيمتها وشكلها وأنواعها، فيقول العملة المستخدمة فى سائر أراضى السلطان المملوكى(قايتباي) صالحة وجيدة السكة ووزنها مساوٍ للقيمة المنصوص عليها، كما أن العملتين من الفضة والذهب مستديرتان وصغيرتان لكن سميكتان، حتى لا يتم قصهما، أما أنواع العملات فذكر أن العملات الذهبية تسمى الصيرفة Seraphe وهو يساوى الدوكات الأوروبى، أما العملات الفضية تسمى المدينى، ومنه نصف المدينى، أما العملات البرونزية فهى بلا شكل ولا كتابة(٥).

---

(1) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 205.

(٢) للمزيد انظر: الصيرفى(علي بن داود الجوهري، ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص٢٠٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٥٢؛ عبدالباسط بن خليل، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٦، ص٤٢٨.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm,P. 207.

(4) Dopp, P.H., L' Egypt au commencement du quanziéme siècle le caire, 1950, P. 20-21.

.

(5) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 207.

وعلى الرغم من خبرة أنسيلم أدورنو الاقتصادية إلا أننا نلتمس له العذر في عدم تقديره الصحيح لقيمة العملة المملوكية الذهبية الأشرفي، فقد كانت جميع أوزان الأشرفي في فترة حكم السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) أقل من ٣،٤٠جرام، كذلك انخفضت النسبة المئوية للذهب حتي بلغت أقل من ٩٥%، هذا يدل على أنه كان مغشوشًا، كما يوضح أن كمية الذهب في الأشرفي كانت أقل من كمية الذهب في الدوكة، وبالرغم من أن الأشرفي والدوكة كانت نسب متساوية، إلا أن النقود الإسلامية كانت تقدر بأكثر من قيمتها في علاقتها مع النقود الأجنبية(١). وكان الوضع النقدى في الدولة غير مستقر، يتحتم معه القيام باصلاح نقدى فيها وعلى هذا فقد كان قيام السلطان الأشرف قايتباي بضرب مسكوكاته في بداية فترة حكمه أمر ضروري في مثل تلك الظروف ، بحيث تقوى على مواجهة الدينار الإيطالي وتحوز على ثقة المتعاملين ورضاهم، وهو ما فعله السلطان قايتباي في بداية تولية السلطنة إذ قام بضرب مسكوكاته النقدية ، وأصدار قايتباي نقوده الذهبية خلال اثني عشر طرازًا نقديًا(٢) .

عند هذا الحد انتهت يوميات رحلة أنسيلم أدورنو ومن معه في القاهرة، والتي استغرقت ثمانية عشر يومًا بدأت من يوم السابع من أغسطس وحتى يوم الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٤٧٠م(٣)، لتبدأ مرحلة جديدة من يوميات رحلتهم إلى سيناء. والواقع أن رحلة أنسيلم أدورنو إلى القاهرة، تعد في معظمها رصدًا أمينًا ودقيقًا لمختلف احوالها، وتمثل مصدرًا موثوقًا وشهادة قيمة لشاهد عيان غربي لأحوال القاهرة الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

---

(١) رأفت النبراوي، النقود الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة،مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٦٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٠٥-١٠٦؛رأفت النبراوي، مسكوكات، ص١١٣؛ حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي ٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة تاريخية حضارية، مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة، د.ت، ص٢٤٩؛ أسامة السعدوني، ظاهرة التضخم الاقتصادى في العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢١م، ص٢٢٧-٢٢٨.

(3) Adorno, Itineraire d'Anselm, P. 205.

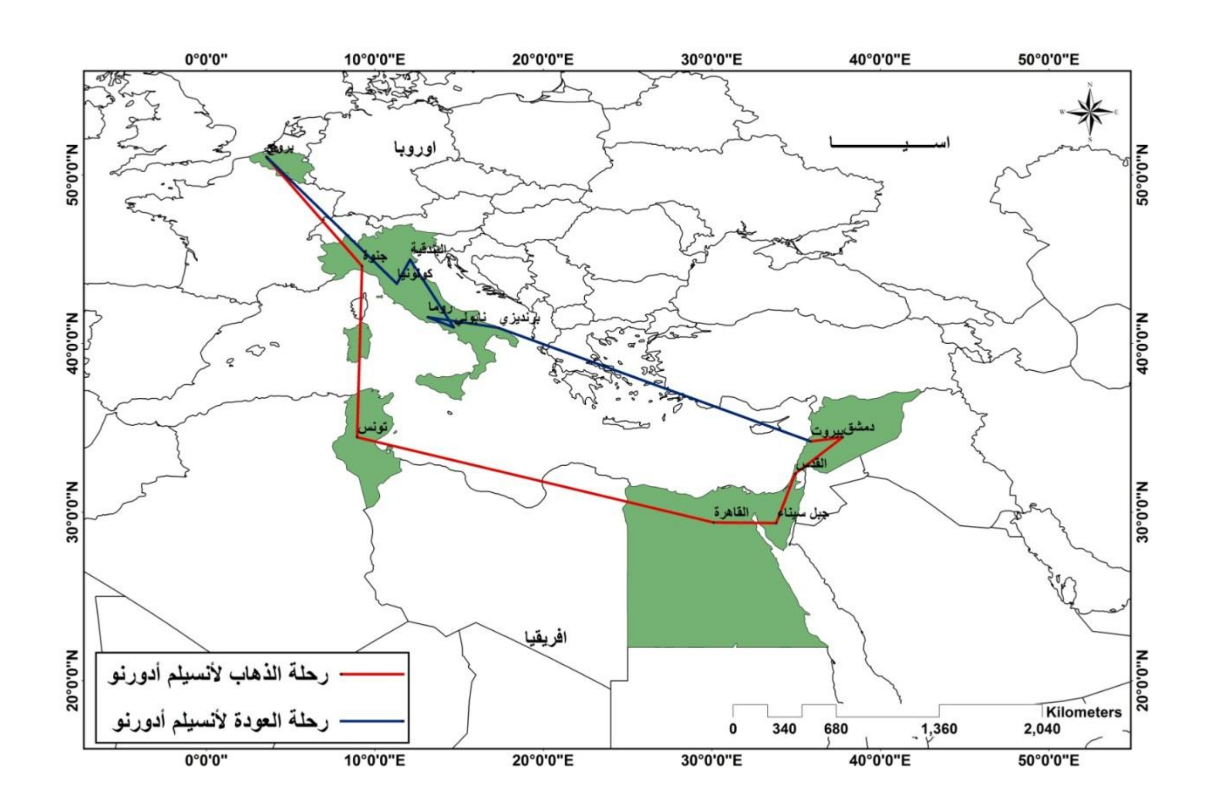
*** الخاتمة:**

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج نعرض لها بإيجاز فيما يلي:

- أوضحت الدراسة أنه من سوء الحظ أن أنسيلم أدورنو جاء إلى مصر في أواخر العصور الوسطى وهي في أعقاب محن طاحنة، ومع ذلك كانت نظرته إيجابية عنها في معظم الأحيان، على عكس غيره من الرحالة الأوروبيين المتعصبين الذين قدموا إلى مصر في أوج قوتها وعظمتها فتحدثوا بدون شفافية وإنما حركتهم روح التعصب الشديد، فكان أنسيلم أدورنو من بين رحالة أوربيين قلائل لم يذكر أنه تعرض للشتائم والضرب من قبل العامة.
- بَيَّنت الدراسة أن المدقق في رحلة أنسيلم أدورنو بصفة عامة يتكون لديه انطباعات أن صاحبها صادق في كثير من مشاهداته، دقيق حينما وصف، موجزًا فيما كتب، هذا إذ ما قورن بما ورد في مدونات لرحلات أوروبية أخرى، إلا أن هذا العمل لا يخلو من بعض اللبس والأخطاء التاريخية، وقد مكنتنا الرحلة من وضع صورة رآها رجل غربي عن الصورة المصغرة لمصر بكاملها.
- أظهرت الدراسة أن أنسيلم أدورنو نجح في تسجيل معلومات لم يسبقه إلى ذكرها أحد على حَدَّ الظن إلا أن المصادر الإسلامية وبشكل أكثر تفصيلا ودقة ، فيما يخص النظام السياسي والعسكري، مع دراية كبيرة بتقسيماته العسكرية من حيث أمراء المئين والطبلخاناة، وأمراء العشرات، وأمراء الخمسات.
- من المآخذ التي سجلت عليه، جنوحه إلى الإيجاز الشديد أحيانا، على نحو ما ورد في سياق حديثه عن أهل الذمة، كذلك لم يتعرض لكل طبقات المجتمع المصري، وقت زيارته لمصر، وإنما تناول بالوصف والتحليل كل من تعامل معهم أو شاهدهم خلال الرحلة.
- أهم ما انفرد به أنسيلم أدورنو هو وصفه لاحتفال وفاء النيل لكونه شاهد عيان عن هذا الكرنفال مقدما لنا وصفا مهمًا، كذلك حديثه عن العملة المملوكية، وما تعرض له الاقتصاد المملوكي من نكسات خاصةً في أواخر العصور الوسطى، فكانت نظرته للأمور الاقتصادية نظرة رجل اقتصادي من طراز فريد.
- كشفت الدراسة أن الرحالة أنسيلم أدورنو هو الوحيد الذي أعطي أسباب عدم نمو نبات البلسم إلا في المطرية فقط دون غيرها، رغم توارد اخبار نبات البلسم في كل مدونات الرحالة الأوروبيين، كما أن زيارته للمطرية ورؤيته لنبات البلسم بنفسه ينم عن بعده الديني لمشاهدة هذا النبات المقدس.
- أكدت الدراسة أن الكاتبان أدورنو لا يقدمان كتابًا حربيًا ولا معلومات عسكرية ودبلوماسية عن أوضاع أعدائهم المسلمين، ولا مدونة بخصوص التأهب لحملة صليبية، كما أنهما

يتجاهلان تجاهلا تاما الولع بالأرقام بهذه النزعة المؤدية إلى إحصاء وتقدير كل شيئ، فكتابهما لا يضم إلا القليل من التحديدات الرقمية التي لم تستخدم إلا تأييدا للفكرة الرئيسية، وهكذا على سبيل المثال لتقدير الوفيات التي أعقبت الطاعون في القاهرة فإنهما لا يحاولان قط الاطلاع على أعداد سكان المدن التي يعبران بها أو تقدير المستوى التجارى وكثافته، ومدى ما تحصله الجمارك من أموال في الموقع، كذا لا يحصيان قط الأعداد ولا عدد الناس ولا السفن، إلا إذا اقتضت الضرورة وتعد نادرة، ولا يذكران الأسعار.وهكذا الكاتبان أدورنو وزاعهما الوحيد هو الفضول والاطلاع على كل شئ وزيارة الأراضى المقدسة للصلاة فيها وممارسة العبادات والطقوس المألوفة.

- رغم أن رحلة هذا الحاج المكتشف القادم من بلجيكا كانت وجيزة محددة المعالم فإنه نفذ ببصره ليرى حقائق دقيقة في المجتمع المصرى في القاهرة، فقد وضع الرحالة نصب عينه زيارة المطرية ونبات البلسم، وذلك لقدسيته لدي المسيحيين، كما أنه أمدنا بروايات خرافية حول هذا النبات، وهذا يدعم فكرة أنه كان رجلا دبلوماسيا على طراز فريد مع عدم إغفال صفة الحاج عنه، وهكذا ساهم أنسيلم أدورنو مع غيره من الرحالة الأوروبيين في تبيان أبرز الجوانب الحضارية في القاهرة.
- وعلى كل يمكن القول أن الرحلة كان هدفها في المقام الأول دينيًا، وعليه لم يهتم أنسيلم أدورنو بتعقب الأحوال في مصر؛ وكل ما وصفه كان من باب الفضول، ولهذا جاء الوصف مختصرًا بصورة كبيرة.



خط سير رحلة أنسيلم أدورنو ذهابًا وإيابًا عام ١٤٧٠-١٤٧١م.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا :المصادر الأجنبية.

- Adler,E.N., Jewish Travelers , ed, London,1930.
اعتمد الباحث على الترجمة العربية للكتاب تحت عنوان: أنكن ناثان أدلر، الرحالة اليهود رحلة الرابي ميشولام بن مناحم الفولتيري ١٤٨١م، في مصر وفلسطين، ترجمة مصطفي وجيه مصطفي، نور حوران، سوريا، ٢٠١٩م.
- Arnold von Harff, the Pilgrimage of Arnotd ven Harff. Knight, from cologne, through - Italy, Syria, Egypt, Arabia, Ethiopia, Nubia, Palestine, turkey, france and spain, which he Accomplished in the years 1496 to 1499, Trans from the German and edited with notes and an introduction by malcelm lettes, F. S. A., London. 1946.
- Baron, P., Anglure, le Saint Voyage. Pe, Jerasalem et l'Egupte, Paris, 1858.
- Bernard de Breydenbah, les Saintes Péré grainations de Bernard de Breyden baeh 1483, text et tradaction annotée par le Péré f. Larrivaz S.J. Extraits relatifs á l' Egypte suivant, L' edition de 1490, Le caire, 1904.
- Felix fabri, levoyage en Egypte de felix fabri, 1483, traduit de latin e.t. de L' Allemand, Par le R.Jacques masson S., J., Publication de L'instut francais d' Archéologie Orientale du caire, 1975.
- Frescobaldi ,Gucci, Sigoli, A Vist to the Holy places , trans . Theophilus Bellorini , Jerusalem,1948.
اعتمدت على الترجمة العربية تحت عنوان: فريسكوبالدي، رحلات إلى الأراضى المقدسة، ترجمة شيرين إيبش، دار الكتب الوطنية، أبوظبي ، ٢٠١٠م؛ جيورجو جونتشي، رحلة إلى المشرق العربى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى، ترجمة شيرين إيبش، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، ٢٠١٠م.
- Suriano, f., Treatise on the Holy land, Trans. Theophilus Bellorini, Jerusalem, 1948.
- Joos Van Ghistele, Levoyage en Egypte a.d (1482- 1483) , Traduction introduction et notes de men Romée, Bauwens- Preaut, Vol (16) Xul, L'institut, francais d' archeology, Cairo 1976.
- Theaund,J., le voyage d'Outremer de Jan Theaund, suivi de la relation de L' Ambassade de Domenice Trevisan aupres du Soudan d'Egypte 1512, Bublie et annote par ch. Schefer, paris, 1984.
- Martin Baumgartin, The Travels of martin Baumgartin a Nable of Germany through Egypt. Arabia, Palestine and Syria,Trans, Joseph Scaligar, 4 Vol. London, 1704.
- Meshulham Ben R., Menahem of volterra, Itinerra of Robbi meshullam Ben R. Menahem of volterra 1481, in: Jewish travellers., ed. Alder, N.C., London 1930.
وقد اعتمد الباحث على الترجمة العربية تحت عنوان:أنكن ناثان أدلر، الرحالة اليهود ، رحلة الرابي ميشولام بن مناحم الفولتيري ١٤٨١م في مصر وفلسطين، ترجمة مصطفي وجيه مصطفي، نور حوران، سوريا ٢٠١٩م.

-Simon Sigoli, Pilgimage of Simone Sigoli to The Holy Land, in Visit to the Holy Places of Egypt ,Sinai,Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi , Gucci,Sigoli, Trans. Theophilus Bellorini,Eugene Hode, Franciscan Press, Jerusalem,1948.

وقد اعتمد الباحث على الترجمة العربية تحت عنوان : فريسكو بالدي و سيمون سيجولي، رحلات إلى الأراضي المقدسة ، ترجمة شيرين إيبش، دار الكتب الوطنية ، أبوظبي،٢٠١٠م.

- Obadia Jaré de Bertinoro, le letters of Obadiah Jaré de Bertinoro, in Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan adler, London 1930.

ثانيًا: المصادر العربية.

- ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٢٨هـ/١٤٦٨م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، ٢٠٠٨م.

-، ابن تغري بردي(جمال الدين يوسف، ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،٢٠٠٨م.

- الجعفري(ناصر الدين الشافعي، ت ٨٨٧هـ/١٤٨٣م)، سيرة السلطان الأشرف قايتباي حوادث عام ٨٧٢هـ- ٨٨٥هـ، تحقيق محمد جمال الشوربجي، نور حوران ، سوريا، ٢٠٢١م.

- الصيرفى(علي بن داود الجوهري، ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.

- عبدالباسط بن خليل(زين الدين بن شاهين ت٩٢٠هـ/١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.

- القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن علي، ت ١٤١٨/٨٢١م)، صبح الأعشي في صناعة الإنشا ، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.

- المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق إيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠١٣م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية .

-Dopp, Le Caire Vu Par Les Voyageurs occidenaux Age in Bulletin De la societe De La societe De Geographie D'Egypte, Tome 26.Le Caire, 1853.

- Saleti,B.,Vestiti ala Moresche: Pilgrims in disguise in Late Medieval Accounts annali online Dell Universite di ferrare . Sezione Lettere ,2015.

رابعًا : المراجع العربية.

- إبراهيم سعيد فهيم، "أحوال القاهرة، ومجاوراتها المنطقة الشرقية وسيناء، سنة ١٥٠٧م في يوميات رحالة أوروبي دراسة وصفية مصدرية مقارنة"، مجلة كلية الآداب جامعة كفر الشيخ، العدد ٢٧، يونيو ٢٠٢٢م.ص٣٠٥-٣٨٦.
- أسامة السعدوني، ظاهرة التضخم الإقتصادى في العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢١م.
- آن وولف، كم تبعد القاهرة، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- حامد عبد الله، مصر فى كتابات فليكس فابرى ٢سبتمبر- ٥نوفمبر ١٤٨٣م/٣٠ رجب -٥شوال ٨٨٨هـ، نور حوران، سوريا، ٢٠٢٢م.

- حسين مؤنس، سفارة بدرو مارتير وانجلاريا سفير الملكيين الكاثوليكين إلى السلطان الغوري، (ديسمبر ١٥٠١م/ فبراير ١٥٠٢م)، بحث منشور ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس أبريل ١٩٦٩م.
- حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي ٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة تاريخية حضارية، مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة، د.ت.
- رأفت النبراوي، النقود الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة،مركز الحضارة العربية للأعلام والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- عبدالله عطية، معجم أسماء سلاطين وأمراء المماليك في مصر والشام، دار النيل، القاهرة، د.ت.
- عبدالعزيز عبدالله محمد أبو داهش بعنوان : "الرحلة عبر مصر في يوميات الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو(١٤٧٠م) والألماني أرنولد فون هارف(١٤٩٧م) دراسة مقارنة في ضوء الرحلات الأوروبية خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكى"، مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية، المجلد ٧، العدد٢، ٢٠٢٠م.ص١١٣-١٥٠.
- عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- علي أحمد السيد، اليهود في شرق البحر المتوسط القرن الخامس عشر الميلادي، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- فايز نجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة أرنولد فون هارف ١٤٩٧م/ ٩٠٢هـ، دار النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- فايز نجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة الفرنسي جان ثونو(مارس سنة ١٥١٢م/ المحرم سنة ٩١٨هـ) دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوروبيين المعاصرين، مجلة كلية الآداب ، جامعة قناة السويس ، ابريل ٢٠١١م، ص٢٤٧-٢٧٥.
- قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٧.
- قاسم عبده قاسم،عصر سلاطين المماليك السياسى والاجتماعى، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية ، القاهرة، ١٩٩٨م.
- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٢م.
- محاسن محمد الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكى، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٠م.
- محمد دسوقي محمد حسن، "نبات البلسم في مصر والشام عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م"، مجلة الإنسانيات ، دمنهور،٢٠١٤م العدد ٤٢،ص٥٥-١١٠.
- محمد دسوقي محمد حسن، "احتكار أسرة زكاريا الجنوية لتجارة الشب في فوكايا وتداعياته (١٢٧٥- ١٣١٤م)"، مجلة الدراسات الانسانية والأدبية ، كلية الآداب ، جامعة كفر الشيخ، مايو ٢٠٢٢م، العدد ٢٦، ص١٨٨-٢٤١.
- محمد عبدالغني الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر، الهيئة المصرية العامة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- محمد قنديل البقلى، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- منال محمد السيد،" بعض مظاهر الحياة في القاهرة في ضوء رحلة الرحالة الألمانى مارتين بوم جارتن"، مجلة المؤرخ المصرى، العدد٥٤، يناير ٢٠١٩م، ص٢٤١-٢٦٩.

- نسرين مصطفي محمد، الدور السياسي للمصريين خلال عصر دولة المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ٢٠١٨م.
- نسمة حامد، الإسكندرية في عصر المماليك الجراكسة فى كتابات الرحالة الأوروبيين ١٣٨٢- ١٥١٧م / ٧٨٤- ٩٢٣هـ ، دراسة تحليلية نقدية مقارنة، نور حوران، سوريا، ٢٠٢١م.
- هداية إمام علي، "المماليك الجلبان ودورهم في عصر دولة المماليك الجراكسة"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م.